

ويليام رايس

مَالَوْكِيُّ الْطَّبَقَةُ ؟

خَوَاعِلْ نَفْسٌ سِيَاسِيٌّ لِلْجَمَاهِيرِ



شِرْجَةَ
جُورْجُ طَارِبِيشِي



دار الطليعة - بيروت

ما الوعي الطبيعي؟

بِحُكْمِ الْعِلْمِ يَنْفَذُ الْمِسَابِقُ

حقوق الطبع محفوظة لدار الطليعة

بيروت - ص ب ١١١٨١٣

الطبعة الأولى
تموز (يوليو) ١٩٧٤

الطبعة الثانية
شباط (فبراير) ١٩٧٩

ويليام رايسن

ما الوعي الطبيعي؟

نحو علم نفسٍ سياسي للجماهير

ترجمة

جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
ببيروت

هذه الترجمة الكاملة لكتاب :

**Qu'est - Ce Que
La Conscience De Classe
Par
Wilhelm Reich**

تقديم

بالرغم من ان هذا الكراس محاولة للاجابة على سؤال نظري محدد : ما الوعي الظبيقي ؟ فان هدفه عملي في المقام الاول : ما السبيل الى الحيلولة دون السقوط في الشیخوخة السياسية ، عرقوب اخیل كل حركة ثورية ؟

لقد كتب رايش هذا الكراس واصدره باسم مستعار ، ارنست باريل ، في عام ١٩٣٤ ، اي في العام التالي للعام الذي صار فيه هتلر مستشاراً للدولة الالمانية وتم فيه تكريس هزيمة الحركة الاشتراكية الالمانية . والكراس ، من منظور هذه الهزيمة ، محاولة للاسهام في بعث الحركة الثورية التي عرف النازيون يومئذ كيف يقصمون ظهرها .

وإذا كانت نقطة الانطلاق المركزية في هذا الكراس التمييز بين الوعي الظبيقي للقادة والوعي (او الشعور) الظبيقي للجماهير ، فان نقطة الوصول هي إرساء بعض أساس لما أسماه رايش بعلم نفس الجماهير : فقد استطاع النازيون ان يفرضوا سيطرتهم على الحركة الجماهيرية بالرغم من ضلال نظريتهم وتهافت ايديولوجيتهم

ورجعية مبادئهم ، وهذا لأنهم عرفوا كيف يتوجهون إلى بسيكولوجيا الجماهير وكيف يخاطبون فيها نفسيتها . أما الاشتراكيون والماركسيون فانهم ، لجهلهم بعلم النفس الجماهيري ولرفضهم آباء ، وجدوا انفسهم مقضيا عليهم بالانعزال عن الجماهير وبخسارة نفوذهم عليها بالرغم من صواب نظريتهم وثوريتهم أيديو لو جيتهم . ومن ثم فان هذا الكراس نداء إلى تأسيس علم نفس للجماهير ، ولكن علم نفس تكون الجماهير ذاته لا موضوعه .

يقول بوريس فرانكيل عن رايش انه «ثوري في نظر الاصلاحيين ، واصلاحي في نظر بعض الثوريين » تروتسكي في نظر الستالينيين الاورثوذكسيين ، وستاليني في نظر غلاة التروتسكيين الاورثوذكسيين ... ». وصحيح اننا نجد في هذا الكراس قسمات وملامح من وجوه رايش المتعددة هذه ، لكن ثمة وجها آخر ينبغي ان نضيفه الى التعداد الانف الذكر ، وهو الوجه الفوضوي . ونحن لا ننبه الى ذلك تذكرة بأن رايش تقهقر مع الاسف في اواخر حياته من ماركسية نحو ضرب من النزعة الفوضوية ، بل تأكيدا على ضرورة قراءة النص الذي تقدم فيما يلي ترجمته قراءة تقديرية ، وهي قراءة واجبة أصلا مع كل نص حتى ولو كان في غنى نص رايش وتجدياته العبرية .

ج . ط

مدخل

يمكن تلخيص الفكرة الاساسية في هذا المؤلف على النحو التالي : ان الكفاح المر الذي يخوضه ثوريو العالم قاطبة على عدة جبهات يحملهم على الا ينظروا الى حياة البشر الا من وجهة نظر ايديولوجيتهم الخاصة بهم ، او على الا يقيموا وزنا الا لواقائع الحياة الاجتماعية المرتبطة بصورة او باخرى بأفكارهم ومعارفهم . لكن القسم الاعظم من سكان العمورة ، الذين يريدون تحريرهم من نير الاضطهاد الرأسمالي ، يجهل كل شيء او يجهل كل شيء تقريبا عن صراعاتهم وامتحاناتهم وأفكارهم ، ويحييا عبوديته بقدر او باخر من عدم الادراك ، فيوطد بالتالي هيمنة الرأسمال . ولو تساءلنا عن عدد أولئك الذين يتاثرون فعلا وحقا ، من بين سائر المواطنين الراشدين الامان البالغ تعدادهم ٤٠ مليونا ، بأحكام الاعدام التي تنفذ بحق الثوريين ، وعن عدد أولئك الذين يكتفون منهم بقراءة الاعلان عن ذلك في الصحف بقدر او باخر من عدم الاكتراث ، لادركتنا على الفور ما الهدف الذي يضعه هذا المؤلف نصب عينيه : بيان الصلة بين وعي الطليعة الثورية ووعي عامة

الناس . وسنكتفي هنا ببأثارة بعض النقاط وطرح بعض الأسئلة التي غضت الحركة العاملة عنها الطرف حتى الان . ومن الممكن ان لا تلقى هذه النقطة او تلك استقبالاً حسناً . ومن الممكن ان تكون مغلوطة ، لكن هذا لا يبدل شيئاً من حقيقة ان حياة البشر البسيكولوجية الفعلية تدور على صعيد آخر غير ذاك الذي يتصوره دعاة الثورة الاجتماعية ، وهذا على وجه التحديد بسبب رؤيتهم الاكثر نفاذًا للمجتمع ، ومن حقيقة ان ذلك واحد من اسباب فشل الحركة العمالية . وكل ما ارجوه ان يعده هذا النص نداء من الفرد المتوسط اللاميسي الى قادة المستقبل الثوريين ، يدعوهم فيه الى ان يفهموه فيما افضل ، والى ان يقللوا من مطالبتهم اياه بفهم «جري التاريخ» ، والى ان يتبحروا له امكانية افضل للتعبير عن آلامه ورغائبه ، والى ان يتكلموا على نحو اقرب تجريدًا وتنظيرًا عن «العامل الذاتي» للتاريخ ، والى ان يفهموا اخيراً ان هذا العامل هو حياة الجماهير .

حزيران ١٩٣٤

ارنست بايدل

-١-

نوعاً الوعي الطبيعي

د الواقع هذا النص

ان محاولتنا الرامية الى توضيح وتبیان بعض المشكلات التي اثيرت اثناء النقاش حول اعادة بناء الحركة العمالية ، بواسطه علم النفس الجماعي ، مقتضي عليها سلفاً بأن يشوبها عدد من التواضع والثغرات . فالظروف والشروط الحياتية التي يجد المهاجرون الالمان انفسهم مضطرين الى العمل فيها ليست بالسهلة . فالاحتلال الحميم ، قبل كل شيء ، بالحياة السياسية ، وبحياة الجماهير بوجه خاص ، مقطوع او مهزوز ؟ والصحف تقدم معلومات مشوهة او متناقضة ، وتهمل مسائل علم النفس الجماعي ، وهذا في ذاته واحد من عوامل الخطأ . ولا وجود لكتبات في متناول المرء في المنفى ، او على الاقل لا وجود لعدد كاف منها . اضف الى ذلك الصراع الشاق في سبيل البقاء ، والاضطهاد من قبل سلطات الاقطار المضيفة . ناهيك عن ان التشدد الراهن للمنظمات

والمناقشات داخل الحركة العمالية لا تجعل المهمة ميسورة . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار اخيراً جدة علم النفس السياسي ، المشوب بالاختفاء ونقاط الضعف الملزمة لكل علم فتى ، تكون قد بينا بما فيه الكفاية من الوضوح الظروفي التي تحول دون تطلب تبحر دقيق مطلق الدقة ، لا يُؤخذ عليه مأخذ ، قابل فوراً للتطبيق على الممارسة السياسية . سوف نقتصر على اثاره مسائل هامة ، لم تلفت اليها انتباه احد حتى الان ، ويكون فيما عدا ذلك ان نقدم بعض الارشادات لمبادئ رفاقنا في النضال ، وكذلك لنقد هم الاسلحة الفكرية التي تستخدمها اليوم الجبهة الثورية .

ومحاولتنا هذه تجريب في الوقت نفسه على بعض الاسئلة التي انطربت منذ ظهور «علم نفس الفاشية الجمعي»^(١) ، وكذلك على بعض النقاد الذين لا يدلون في رأيهم على تفهم للمسائل البيكولوجية ، مثلهم في ذلك مثل العديد من الاقتصاديين . ان مناقشات مع فئات سياسية شتى قد اظهرت ان الجواب على سؤال «ما الوعي الطبقي؟» يقتضي دراسة مسبقة للمشكلات الناجمة عن الوضع السياسي الراهن .

ان الفشل الماحق الذي منيت به الحركة الاشتراكية في المانيا كانت له اصداؤه وانعكاساته المؤسفة في البلدان الاجنبية ، والفاشية تحقق في كل مكان تقدماً كبيراً بالمقارنة مع الحركة الثورية . لقد دلت الاممية الثانية ، مثلها مثل الثالثة ، على عجزهما عن السيطرة على الواقع ، ولو بصفة نظرية ، هذا اذا لم نشا ان نتكلم عن وجة النظر العملية . دلت الاممية الثانية على ذلك بسياستها البورجوازية في الاساس والجوهر ، والاممية الثالثة بافتقارها الى النقد الذاتي ، وبتشبيتها المشووم بالخطأ ،

١ - واحد من اشهر واعظم مؤلفات رايش . - س-

و قبل كل شيء لأنها لم تستطع - بل حتى لم تنشأ - أن تطرد من صفوتها البربرية والقراطية .

يريد حزب العمال الاشتراكي والشيوعيون الامميين «أممية جديدة» . ولكن هناك من الان خلافات واسعة على كيفية هذا الحرب الجديد . وقد سبق لتروتسكي ان طالب بتأسيس «الاممية الرابعة» ، وحزب العمال الاشتراكي يؤيد ذلك ويحتج من حيث المبدأ ، لكنه يريد ان تكون «الاممية الجديدة» نتيجة لجتماع الطبقة العاملة ، ولا يريد انشاءها على دفعة واحدة كما يروم تروتسكي ، وتحقيق ذلك التجمع بواسطة هذا الشعار . اما نحن فنطرح المسألة ، في حركة السياسة الجنسية ، على الوجه التالي : هل ينبغي لنا ان نؤسس على الفور تنظيمانا وأن نقوم بالتعبئة والتنسيق على اساس برنامجه ، أم ينبغي اولا ان ندع الايديولوجيا والبرنامج يعمان وينتشران في كل مكان ، فلا تحقق التجمع التنظيمي الا فيما بعد وعلى اساس اوسع ؟ لقد وقع اختيارنا على الطريق الثاني ، ونحن نقول ان «تنظيماما تمهديا اكثر رخاؤة» ينطوي على العديد من المزايا : لا تدابير فصل وطرد سابقة لاوانها ، تحاشي لخطر الانطواء العصبي ، امكانية افضل للتسلب الى منظمات أخرى ، وما الى ذلك . ان المطلوب اولا معرفة منظورات التطور السياسي وآفاقه على حد ما متوقع . وقد خيل للجماعة التي تهتم بالسياسة الجنسية ان في وسعها التمييز بين احتمالات ثلاثة : ١ - احتمال انتفاضة غير متوقعة في المانيا في مستقبل قريب . ونظرا الى انه لا وجود لاي تنظيم قد هيئ نفسه ، ولو في ادنى الحدود ، مثل هذا الاحتمال ، فلن يكون في مستطاع اي تنظيم ان يتزعم الحركة وأن يقودها الى حسن الختام . وهذا المنظور ، على كل حال ، اقل المنظورات احتمالا . لكن اذا ما تحقق بالرغم من كل شيء ، فسيكون الوضع في غاية الفوضى والسدية ، وسيكون مجرى الامور متقلبا الى ابعد الحدود ،

حتى ولو لم يكن المال سيثاً . وفي هذه الحال ، ستعاضد فوراً بجميع الوسائل هذه الحركة . ٢ - من المحتمل ان يستفرق التجمع النظري والتنظيمي للحركة العاملة بضع سنوات ، ومن المحتمل بالتالي ، اذا ما تكافلت كحركة وباتت محبوبة بقيادة افضل تمرساً وأصلب عزماً ، ان تتوصل الى الاستيلاء على مقايد السلطة في المانيا في العقود القليلة التالية ، ولنقل : في العقددين القادمين . وهذا المنظور كبير الاحتمال في حد ذاته ، لكنه يتطلب من الان عملاً تمهيدياً شاقاً ، متواصلاً ، لا يعرف الملل او الكلل .

٣ - الاحتمال الثالث الا يتحقق توحيد الحركة العمالية في ظل قيادة جديدة ، افضل تمرساً واجدر بالثقة ، او الا يتحقق بالسرعة الكافية ، وأن تعزز الفاشية العالمية مواقعها في كل مكان ، معتمدة بوجه خاص على مهارتها الطبيعية في اجتذاب الاحداث والراهقين ، فتضمن لنفسها قاعدة جماهيرية ثابتة ، مستفيدة من كل ظرف مؤاتٍ مهما يكن واهناً؛ وفي هذه الحال يتوجب على الحركة الاشتراكية ان تتوقع مرحلة من البربرية الاقتصادية والسياسية والثقافية ، طويلة غاية الطول ، تمتد على عدة عقود، وسيتوجب عليها حينئذ ان تثبت انها لم ترتكب خطأ جوهرياً وانها على كامل الحق في التحليل الاخير بالرغم من كل شيء . ان هذا الاحتمال يكشف للعيان المسؤولية الكبيرة التي تقع على كواهلنا .

اننا نأخذ الاحتمال الاول بعين الاعتبار بمقدار ما ياذن لنا الموقف بذلك ، ونجعل من الثاني ، وهو الاقرب الى امكان التحقق ، هدف عملنا الذاتي ، وسوف نحشد كل قوانا لتحقيقه ، وسوف نلتمس جميع الوسائل التي في طاقة البشر لتحول دون الاحتمال الثالث .

لئن كان هدفنا على هذا الاساس تأمين وحدة الطبقة العاملة ، وفاعليتها ، وتحالفها معسائر فئات السكان الكادحين ، فان علينا

في الوقت نفسه ان نتنصل دفعة واحدة من جميع تلك الميول والاتجاهات التي تتحدث عن «تحقيق الوحدة» ، لكن التي تحقق في الواقع الانقسام من دون ان تريده . كيف نفسر ان تكوين الجماعات العصبية الصغيرة لا يزال مستمرا حتى الان ، وهذا بالرغم من الكارثة الالمانية ، وكيف نفسر ان الاوساط المسؤولة في المانيا وفي خارجها على حد سواء لا تزال ، بكل اسف ، متابرة على المناقشات السkulolائية القديمة ، وعلى تبادل الشتائم والسبات التي لا يراد لها ان تخلي مكانها لقدرة فعلية ، متوجهة نحو الواقع المستجد ؟ اتنا نقول ان هذا التعلق المشووم بكلمات ومخططات وصيغ وانماط في النقاش قديمة ، متهرئة حتى اللحمة ، متشنج ، متحجرة ، ينبع من عدم وجود كيفية جديدة في طرح المسائل ، كيفية جديدة في التفكير ، كيفية في روية الاشياء جديدة كل العجدة وبسيطة وغير معقدة . اتنا لعلى يقين بأن فكرة واحدة احسن اختيارها ، بأن شعارا واحدا مناسبا وملائما من نمط جديد لقمين بأن يلم شمل الجميع من جديد على الفور ، باستثناء المهدارين المحبين للنقاش في سفاسف الامور من لا شفاء لهم ، وأن يضع حدا للمناقشات العقيمة . قد يشعر بعضهم بأنه هو «المقصود» هنا ؛ وأنا اتكلم بالفعل عن هؤلاء . ان المهمة العاجلة التي تقدم على اي مهمة اخرى هي بعث الماركسية الحية ، وفي المقام الاول في تمحیص الواقع وفي المناقشة . وهذا يقودنا الى مسألة تأسيس منظمة اممية جديدة . فاذا كان مكتوبا على مثل هذه المنظمة ان تنبش وتبعث ، حتى من مؤتمرها الاول ، المناهج والصيغ والاساليب القديمة في التفكير والنقاش ، فستكون قد ولدت ميتة . اتنا نعرف منذ قديم الازمان اتنا نريد مصادرة الرأسمال ، وتشريك وسائل الانتاج ، وتشييد سلطة الشفيلة والجنود والمستخدمين وال فلاحين وسيطرتهم على الرأسمال ، واننا نريد الديموقراطية الحقيقة للشعب الشفيل ، ونعرف ان

الاستيلاء على السلطة لهذه الغاية بقوة السلاح لا بالبطاقات الانتخابية امر ضروري الخ . لكن لن يكون ثمة فائدة كبيرة من الاكتفاء بتردد ذلك من جديد ، وباتخاذه برنامجا ، فهذا امر قد فعل في الماضي مرارا وتكرارا . ان المسألة الكبرى هي معرفة علة تشنج منظماتنا وتحجرها ، وسبب خنق البير وقراطية لنا ، ودفع الجماهير الذي دفع بها الى السير في الاتجاه المعاكس لصالحها بالذات بحملها هتلر الى سدة الحكم . ولن تكون هناك حاجة ملحة الى ان نبذل باستمرار الكثير من الجهد والطاقة في معالجة مسائل الاستراتيجية والتكتيك - التي هي في غاية الامانة في حد ذاتها - اذا كانت الجماهير معنا . ان مختلف الجماعات تندفع الى اليوم بالاستراتيجية والتكتيك لتعارض احدهما بالآخر . والحال انه لا بد من معالجة هذه المشكلات الاساسية بمقاهيم جديدة كل الجدة ، بطرائق جديدة في التأثير على الجماهير ، بآيديولوجيا وبنية شخصية جديدين كل الجدة ، قبل التفكير في انجاح اي شيء كائن ما كان . ولن يصعب علينا ، اذا شئنا ، ان ثبت اتنا لا نتكلم لغة الجماهير الواسعة التي هي جزئيا غير مسيسة ، وجزئيا مسترقية آيديولوجيا ، والتي أفسحت في المجال في خاتمة المطاف امام انتصار الرجعية . فهي لم تكن تفهم لا قرارانا ولا ما نعنيه بـ «الاشتراكية» ؟ ولم يكن لها وليس لها اليوم بناء ثقة؟ وكانت تقرأ صحفنا بداعي الواجب او لا تقرؤها بالمرة . ولن تحرّك بنوع ما ، فهذا لأنها كانت اشتراكية على نحو مبهم ، ولكن ما أمكن لنا ان نستفيد من هذا الشعور الاشتراكي المبهم ، وبذلك سهلنا امام هتلر صعوده الى سدة الحكم . ان فشلنا التام المطبق في تفهم الجماهير الواسعة وتحريكها هو العلة الاساسية للعديد من الثغرات ، الكبيرة والصغيرة ، في الحركة العمالية ، ولتعلق الاشتراكيين - الديموقراطيين بحزبيهم ، ولشعور الكثريين من القادة البروليتاريين بالفيظ والمذلة ، ولعادتنا كمحبين للنقاش

في سفاسف الامور وكماركسيين سكولائيين .
 ان ثمة عامل اساسيا ، ان لم نقل انه العامل الاوحد ، في
 فشل الاشتراكية في مختلف جوانبها ، عاملما ما عاد في الامكان
 التفاضي عنه او اعتباره ثانويا ، وهو عدم وجود علم نفس سياسي
 ماركسي قابل للاستخدام . ولا يتأتى هذا الفياب من واقع ان علم
 نفس كهذا لا يزال يتنتظر من ينشئه فحسب ، بل ايضا من واقع
 ان الذعر من النظرة البيكولوجية ، من علم نفس عملي ومتعمد ،
 كبير في اوساط الحركة العمالية . ان هذه الثغرة من جانبنا كانت
 بمثابة ميزة كبيرة للعدو الطبعي ، كما كانت اقوى سلاح يند
 الفاشية . ففي الوقت الذي كنا نقترح فيه على الجماهير تحاليل
 تاريخية واسعة وشروح اقتصادية مسهبة حول المنازعات
 الامبرالية ، كانت حماستها كلها تنصب على هتلر تحت تأثير
 تحريريات عاطفية عميقة . لقد تركنا ، على حد تعبير ماركس ،
 ممارسة العامل الذاتي للمثاليين ، وغدونا ماديين ميكانيكيين .
 ترى هل نبالغ ؟ هل نرى الاشياء من خلال نظارات «الاختصاصي»؟
 لنجاول الاجابة على هذا السؤال بمساعدة بعض الامثلة العينية ،
 امثلة بعضها اهم من غيره ، وبعضها اقل اهمية وثانوي ظاهريا .
 اننا لا نقترح ترياقا وبلسما شافيا لكل الامراض ، وانما قصدنا
 تقديم مساهمة صغيرة هي بمثابة بداية لا اكثرا .

نوعاً «الوعي الطبعي»

ضمانا لنجع اي سياسة تتطلع الى تحقيق النصر للاشتراكية
 وسيطرة العمل على الرأسماли ، فان من الاممية بمكان الا تكتفي
 بمعرفة الاثر الموضوعي لتطور القوى الانتاجية على الحركات
 والتغيرات الاجتماعية ، هذا التطور المستقل عن كل اراده ، بل ان

تبين ايضاً - وتعطي الاهمية الكافية لذلك - ما يدور في «الرؤوس» ، اي في البنية العقلية للناس الذين يتاثرون وينفثون بالعمليات الموضعية التي ينجزونها ، تبعاً لاختلاف بلدانهم وأحيائهم وزمرهم المهنية وأعمارهم وجنسهم . ان مفهوم الوعي الظبي يلعب دوراً هادياً وقيادياً في الحركة والسياسة الاشتراكية ، ذلك ان «اكتساب الوعي الظبي» من قبل ثبات السكان الرازحة تحت نير الاستطهاد هو الشرط الاول لكل تحويل ثوري للنظام الاجتماعي القائم ومعنى بذلك بلا لبس وبكل وضوح ان البشر لا بد ان يتغيروا تحت تأثير العمليات الاقتصادية والاجتماعية حتى يكون في مستطاعهم انجاز عمل كبير كالثورة . ونحن نعلم ايضاً ان لينين خلق الطبيعة والحزب الثوريين تيسيراً لتغيير البشر هذا وتسريعاً وتركيزاً له ، وتحويلاً له الى قوة سياسية . ففي الطبيعة ، التي هي نخبة المناضلين الاشتراكيين وفتهم الاكثر وعيًا ، لا بد ان يتركز وعي الوضع الاجتماعي ووعي وسائل السيطرة عليه والطرق القمينة بأن تفضي الى الاشتراكية ، ولا بد ان يشحد وان يعود على التوقع والتبؤ ، وعلى وجه التحديد ان يعود على الدرجة التي ينبغي ان توصل اليها الطبقات الكادحة اذا كان يراد للثورة النجاح . هذا هو ، لا اكثراً ولا أقل ، جوهر المسألة السياسية التي تلخصها عبارة «الجبهة الواحدة». ان مثالين اثنين يكفيان لبيان اننا بعيدون غاية البعد عن فهم ماهية الوعي الظبي .

ففي الكراسة التي صدرت مؤخراً بعنوان «المعاودة» ثمة توكيد شديد على ضرورة «حزب ثوري» ، على ضرورة قيادة ثورية بملء معنى الكلمة ، لكن فيها في الوقت نفسه نفياً لوجود وعي طبقي لدى البروليتاريا . جاء في الكراسة : «في اساس جميع الافكار والمبادرات (أفكار ومبادرات الاممية الثانية والثالثة) نجد الاعتقاد بوجود عفوية ثورية فطرية لدى البروليتاريا ... ولكن

ماذا لو ان هذه العفوية الثورية لم يكن لها من وجود الا في رأس اعضاء الاحزاب الاشتراكية ، من دون ان يقابلها شيء في الواقع؟
ماذا لو ان البروليتاريا ليست منقادة بنفسها ، وبالتالي بفعل القوى الاجتماعية الطبقية ، الى «النضال النهائي» ؟ ... انهم يؤمنون ، وهم العاجزون عن التفكير بدون مساعدة عقائدهم وأطروحتهم ، يؤمنون بحمى دينية بالقوى الثورية العفوية ...) ص ٦) .

ان النضال البطولي المنقطع النظير ، الذي خاصه العمال النمساويون بين ١٢ و ٦ شباط ١٩٣٤ ، يبرهن على انه من الممكن بكل تأكيد ان توجد عفوية ثورية بدون وعي لـ «النضال النهائي». ان العفوية الثورية وفكرة «النضال النهائي» أمران مختلفان . النتيجة التي يخلصون اليها اذن هي ان الوعي الثوري يجب ان يجلب الى الجماهير . هذا صحيح ! لكن كيف السبيل الى ذلك اذا لم نكن مطلعين على ما نسميه بالوعي الثوري ؟ لقد كان في المانيا زهاء ٣٠ مليون شغيل تعمر قلوبهم مشاعر مناهضة للرأسمالية ، وكان هذا اكثرا من كافٍ من حيث العدد بالنسبة الى الثورة الاجتماعية ، لكن الفاشية هي التي ارتقت الى سدة السلطة على وجه التحديد بمساعدة مشاعر انصارها المناهضة للرأسمالية . فهل المشاعر المناهضة للرأسمالية هي الوعي الظبيقي ، ام انها مجرد استعداد للوعي الظبيقي او محض شرط من شروط تكوينه ؟ لقد ابدع لينين مفهوم الطليعة والحزب ، وكذلك مفهوم التنظيم بالذات ، بهدف اكمال ما كانت الجماهير عاجزة عن تحقيقه بنفسها عفويا .

«لقد قلنا ان العمال لا يمكن ان يكون لهم وعي اشتراكي - ديموقراطي . وهذا الوعي لا يمكن ان يأتيهم الا من الخارج . ان تاريخ الاقطار كافة يشير الى ان الطبقة العاملة لا تستطيع ، في حال انكفائها على محض قواها الذاتية ، ان تكتسب سوى وعي

نقابي مهني ، اي ان تقتضي بضرورة الاتحاد نقابيا ، بضرورة شن نضال ضد المقاول ، بضرورة مطالبة الحكومة بهذا القانون الاجتماعي او ذاك ، الخ ...» (لينين) .

تخلق الطبقة العاملة اذن ، انطلاقا من وضعها ، «وعيا» ؟ صحيح ان هذا «الوعي» غير كاف لزعزعة ركائز هيمنة الرأسمال (فهذا امر يتطلب حزبا على درجة رفيعة من التنظيم) ، لكنه قد يكون مشتملا على اشكال جنينية او على عناصر مما يسمى بالوعي الظبي او الوعي الثوري . فما هذا «الوعي» ؟ كيف فهمه ؟ ما مظاهره العينية ؟

اذا انكر بعضهم ان ما يجوز تسميته بالوعي الظبي ، او عناصره او شروطه ، يتكون في الطبقة المضطهدة ، فهذا لان هذا البعض لا يعرف الاشكال العينية لهذا الوعي ؟ اضف الى ذلك ان القيادة تجد نفسها في مأزق او طريق مسدود : فالقيادة مهما تكن على درجة عالية من البساطة والاقدام والاسعداد وما الى ذلك من الصفات لا تستطيع ابدا ان تجلب الى انجماهير ما يسمى بالوعي الظبي ، اذا لم يكن موجودا في البروليتاريا شيء شبيه به من قريب او بعيد . اذ ما الذي ينبغي ان يجلب للجماهير ؟ المعرفة الاختصاصية الرفيعة بالسيرة السوسيلولوجية وبناقصاتها ؟ ام المعرفة المقدمة بقوانين الاستغلال الرأسمالي ؟ وهل كانت هذه المعرفة متوفرة لدى انصار روسيا الثورية حين كانوا يقاتلون بحماسة ، ام انه لم تكن بهم اليها حاجة ؟ هل كانوا عمالا وفلاحين «ممتتعين بوعي طبقي» ، ام كانوا متمردين لا غير ؟ اتنا نطرح هذه الاسئلة حتى نبين الى اي حد هي بلا منفذ ولا مخرج .

لنبحث عن نقطة انطلاق في التجربة والممارسة البسيطتين . لقد دار نقاش حاد مؤخرا بين افراد جماعة سياسية حول الوعي الظبي وضرورة «ايقاظه بكل جموجه» . وقد اضطرر المتناقشون الى ان يطرحوا على انفسهم لأول مرة السؤال التالي :

عم يدور الكلام على وجه الدقة ؟ ما المقصود حين يدور الكلام عن الوعي الظبقي ؟ لقد بادر بالفعل واحد منهم ^(١) ، وكان قد لزم الصمت حتى تلك اللحظة ، فرجا أحد القياديين ، من المدافعين المخلصين عن الوعي الظبقي للبروليتاريا الالمانية ، ان يتفضل فيعدد خمسة عناصر من الوعي الظبقي ، واذا امكن ايضا ، خمسة عوامل تعاكس تطوره . وقد قال : اذا كنا نريد تطوير الوعي الظبقي ، فلا بد اولا ان نعرف ما نريد تطويره ، ولماذا لا يتتطور عفويًا تحت ضغط مختلف ضروب الحاجات ، وبالتالي ما يحول دون هذا التطور ! وقد بدا واضحًا ان السؤال منطقى . وقد اخذت المسئول الموجه اليه السؤال بعض الدهشة في البداية ، ثم تردد قليلا ، ثم اجاب بكل ثقة : «انه الجوع ، طبعا». وانبرى السائل يرد عليه : «هل يتمتع عضو (ف. ه) ^(٢) الجائع بالوعي الظبقي ؟ هل يتمتع

١ - هو رايش نفسه ، وذلك الناء اجتماع التروتسكين الالمان في باريس عام ١٩٢٢ . وانما في اعقاب هذا الاجتماع وضع على الورق المسودة الاولى لهذا الكراس .

٢ - ف. ه (الفصيلة الهجومية) : منظمة من منظمات العرب النازي كانت مهمتها في البداية «المحافظة على النظام» ، ثم تحولت الى ميليشيا بالغة الاهمية عدديا . وكانت قريبة جدا من قاعدة الحزب الجماهيرية ، تتالف من «الغوغاء» ، تقن الرعic ولا تعرف الانضباط . وقد انشأ هتلر ، لتكون له قوة اجدر بالثقة ، حرسا شخصيا عهد بقيادته عام ١٩٢٩ الى هتلر . وحين ارتقى هتلر سدة الحكم عام ١٩٣٣ وفرد ، بخلاف دعایته الثورية ، الا يمس البنية العسكرية والصناعية الالمانيا ، لقى معارضة من جانب الجناح اليساري في الحزب ، ولاسيما «الفصيلة الهجومية» . وعلى اثر ذلك ، امر هتلر الحرس الشخصي في عام ١٩٣٤ باغتيال روحه وغيره من المسؤولين عن «ف. ه» . وابى هذا الحادث يشير رايش في الفصل الرابع في هامته : «ملحوظة الناء التصحیح» .

بالوعي الطبقي السارق الذي يسرق قطعة من المقانق بداعم الجوع ، او العاطل عن العمل الذي يقبل مقابل ماركين بالاشتراك في مسيرة رجعية ، او المراهق الذي يقذف الشرطة بالحجارة اثناء التظاهر ؟ . وعليه ، اذا لم يكن الجوع ، الذي بنى عليه الحزب الشيوعي الالماني كل بسيكلوجيته ، عاملا في حد ذاته من عوامل الوعي الطبقي ، فما المطلوب اضافته اليه ؟ ما مظهره العيني ؟ بم تختلف الحرية الاشتراكية عن الحرية القومية التي يعد بها هتلر ؟ لم تكن الاجوبة مقنعة او مرضية البتة . هل سبق للصحف السارية ان طرحت تلك الاسئلة واجابت عليها ؟ قطعا لا .

ان التصور الذي يرى ان الطبقة المضطهدة تستطيع من تلقاء نفسها ، بلا قيادة ، وبدافع ارادة ثورية عفوية ، ان تضمن انتصار الثورة ، لا يقل خطأ عن التصور المعاكس الذي يرى ان هذا الانتصار منوط بالقيادة وحدها ، القيادة التي لن يكون عليها في هذه الحال سوى ان تخلق الوعي الطبقي . والحال انه لن يكون في مستطاع القيادة ابدا الوصول الى ذلك ، اذا لم يكن هذا الوعي يتمتع فعلا بوجود ما ، وان في شكل عفوي . اذا صح ، اذن ، ان الشرط الذاتي للثورة الاجتماعية هو التوافق بين حالة نفسية معينة للجماهير وبين الوعي الاسمي والارفع للقيادة الثورية ، فان ضرورة الاجابة على السؤال : «ما الوعي الطبقي ؟» تصبح اكثر الحاجة . واذا ما اعترض هنا معتبر بأن السؤال غير ضروري ولا طائل تحته ، اذ كان يجري التوكيد على الدوام على واجب الاعتماد على «ال حاجات اليومية » ، فاننا نسأل في هذه الحال : «هل المطالبة بوضع مراوح في المنشآت تسهم في تطوير الوعي الطبقي ؟ وإلام يصير الحال حين يفعل ذلك ايضا مجلس المنشآت التابع ل «م. ع. ق. إ(١)» ؟ وربما حين يفعله بمزيد من المهارة

١ - هي المنظمة النازية «منظمة العمل القومية الاشتراكية» .

والتوافق ؟ أ بذلك يتم اكتساب مشاعر العاملين في المنشاة ؟ إن الفارق بين دفاع الاشتراكيين عن «المصالح الصغيرة» ودفاع الغاشيين عن نفس المصالح ، بين شعارنا في الحرية وشعار «القوة بالفرح » (١) .

هل يذهب بنا الفكر الى شيء واحد حين نتكلم عن الوعي الظبيقي لدى العامل المتدرب وعنده لدى قيادي في حركة الشبيبة ؟ يقال ان وعي الجماهير يجب ان يرفع الى مستوى الوعي الظبيقي الثوري ؟ فاذا كان المقصود بذلك المعرفة المتخصصة التي يفترض بالقيادي الثوري ان يمتلكها بخصوص مجرى التاريخ ، فاننا تكون نسعي وراء وهم وسراب لا اكثرا . ففي ظل الرأسمالية لن يكون في الامكان ابدا الوصول ، عن طريق آية دعاية ، كائنة ما كانت ، الى بث هذه المعرفة المتخصصة للغاية في الجماهير الواسعة التي يفترض بها ان توصل الانتفاضة والثورة الى حسن الختام . ونظرا الى اننا كنا نكتفي في الاجتماعات الانتخابية باطلاق الشعارات ، او بحمل مسؤول من المسؤولين على الاسهاب طوال ساعات ، كما كان يحدث غالبا في «قصر الرياضة» ، في شرح السياسة المالية للبورجوازية او التناقضات الاميركية - اليابانية ، فقد كنا نخنق الحال الحماسة والانفعال البديئين ، وننسب الى الجماهير الاهتمام والقدرات الضرورية على التحليل الاقتصادي الموضوعي ، ونلاشي هباء لدى الالاف من المستمعين ما يسمى بحق بالشعور الظبيقي . لقد افترضت السياسة الماركسية الثورية حتى الان وعيها طبقيا جاهزا لدى البروليتاريا ، من دون ان تكون قادرة على تحليله عينيا وبالتفصيل . وقد عزت معرفتها الخاصة بالسيرورات السوسيولوجية - وهي معرفة مفلوطة اصلا في غالب الاحيان -

١ - اسم منظمة نازية تهتم بأوقات الفراغ .

الى وعي الطبقات المضطهدة ، وهذا ما وصف مؤخرا بـ «المثالية الذاتية» . ومع ذلك كان يتعذر بلا لبس ، كلما انعقد اجتماع شيوعي ، على اثر لـ «وعي الجماهير الظبيقي» ويماط عنہ اللثام ، وهذا ما كان يميز جو الاجتماع عن جو اي تنظيم سياسي آخر . لا بد اذن ان يكون هناك ، بين الجماهير الواسعة ، نوع من وعي طبقي يتمايز تماما جوهريا عن وعي القيادة الثورية . وعليه ، ان هناك نوعين من الوعي الظبيقي : وعي القيادة الثورية ووعي الجماهير ؛ ومن الواجب ان يتطرق الى الاثنان . وليس امام القيادة من مهمة اعجل واكثر الحاجة ، علامة على المعرفة الدقيقة بالسيرة التاريجية الموضوعية ، من مهمة فهم ما يلي :

أ - ما الافكار وما الرغبات التقديمية التي تتوارد تبعا للفئات والمهن والاعمار والجنس .

ب - ما الرغبات والهواجرس والافكار التي تعيق تطور المظاهر التقديمي («الثوابت التقليدية») .

ليس وعي الجماهير الظبيقي جاهزا ، كما كانت تتصور قيادة الحزب الشيوعي الالماني ، ولكنه ليس غائبا كامل الفياب ، كما ان بنيته ليست تلك التي تعزوها اليه قيادة الحزب الاشتراكي . فوعي الجماهير الظبيقي يتمثل بالاحرى في شكل عناصر عينية ليست هي بذاتها بعد الوعي الظبيقي (المجموع على سبيل المثال) ، ولكنها قمينة باجتماعها وتضافرها ان تنتجه . كذلك ليست هذه العناصر في حالة من النقاء التام ، وانما تشويبها وتحتلط بها قوى وتصورات نفسية من اتجاه معاكس . ان شخصا كهتلر لا يمكن ان يكون على صواب ، مع ضيوفه القائلة ان الجماهير قابلة للتأثير قابلية الاطفال ، وانها لا تفعل من شيء سوى ان تردد ما تلقم اياه ، الا بقدر ما لا يؤدي الحزب الثوري اهم مهامه قاطبة ، اي انشاء الوعي الظبيقي بدءا من قواه الابتدائية ، وتوسيعه ، وتصفيته ، والتقدم به الى الامام . والحال انه لم يكن في المانيا

شيء من هذا على الاطلاق .

ليس مضمون الوعي الطبقي للقيادي الثوري من طراز شخصي ؛ بل على العكس ، فيقدر ما تختلط به المصالح الشخصية (الطموح ، الخ ...) تعيق فعله وعمله . وبالمقابل ، نجد ان الوعي الطبقي للجماهير الواسعة (باستثناء أقلية ضئيلة من الشفيلة الوعاعين ثوريا) هو من طراز شخصي محض . الوعي الاول يشتمل على معرفة تقاضات الاقتصاد الرأسمالي ، والامكانيات المنقطعة النظير للتخطيط الاشتراكي ، وضرورة الثورة الاجتماعية بوصفها ملائمة لشكل التملك مع شكل الانتاج ، والقوى التاريخية ذات الاتجاه التقدمي او الرجعي . اما الوعي الثاني فيبعد غاية البعد عن تلك المعرفة وعن المنظورات والآفاق الواسعة ، وجوهره الصغائر والسفافس وما هو يومي . الاول يدرك السيرة الموضوعية ، والتاريخية ، الاجتماعية – الاقتصادية ، ويستوعب الشروط الخارجية ذات الطبيعة الاقتصادية والاجتماعية التي يخضع لها البشر ؛ والحق ان هذه السيرة لا بد ان تفهم ، لا بد ان توضع اليديها وأن تتم السيطرة عليها ، اذا كنا نريد ان تكون سادتها لا عبيدها . لا مناص اذن من وضع تخطيط قادر على تلافي الازمات المحتملة وعلى خلق القواعد الضرورية لحياة الشفيلة قاطبة . ومن هذا المنظور ، ان المعرفة الدقيقة بالتناحرات الاميركية – اليابانية ، وبغيرها من التناحرات ، ضرورية مطلقاً الضرورة . وبالمقابل ، لا يهتم الثاني بتناحرات الروسية – اليابانية او الانكليزية – الاميركية ، كما لا يهتم بتقدم القوى الانتاجية ؛ واهتمامه كله منصب على انعكاسات هذه الاولى الموضوعية في الذاتية وترسباتها ومفاعيلها فيها ، في شكل عدد لا حصر له من الشؤون الصغيرة للحياة اليومية . ان مضمونه اذن هو الاهتمام بالماكل ، بالملابس ، بالموضة ، بوسائل القراء ، بامكانيات التلبية الجنسية بالمعنى الضيق للكلمة ، بالألعاب والتمتع الجنسية بالمعنى الواسع للكلمة ،

كالسينما والمسرح والمهرجانات والرقص ، وكذلك الاهتمام بمصاعب تربية الاولاد ، وتدبير شؤون البيت ، ومدة اوقات الفراغ ومحتوها الخ ...

ان وجود وشروط وجود البشر تنعكس وترسب وتعيد انتاج نفسها في بنائهم العقلية وتعطي هذه الاخرية شكلاها . وانما من خلال هذه البنية العقلية وحدها تصبح السيرورة الموضوعية في متناولنا ، ويغدو في وسعنا ان نعيقها او نيسّرها ونسيطر عليها . وانما بواسطة رأس الانسان ورغبته في العمل وطلبه لفرح الحياة ، وباختصار ، وجوده النفسي ، نخلق العالم ونستهلكه ونحوّله . هذا ما نسيه منذ طويل الامد اولئك «الماركسيون» الذين انحطوا الى اقتصاديين . واذا كانت السياسة العامة ، المتعلقة بالاقتصاد والدولة والتوضعة على المستوى التاريخي ، تهدف الى بناء وتوطيد الاشتراكية الاممية ، لا اشتراكية قومية ما (الطلاق على نفسها ما تشاء من الاسماء^(١)) ، اي اذا كانت تريد ان تبقى ماركسية ، فلا بد ان ترجع الى الحياة اليومية المتواضعة ، المبتذلة ، الساذجة والبسطة ، للجماهير الواسعة ، بكل تنوعها الجغرافي والاجتماعي . هذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة التي تتبع ربط السيرورة السوسيولوجية الموضوعية بوعي البشر الذاتي ، وتسمح بتجاوز تناقضهما والهوة التي تفصل بينهما . وباختصار ، تتيح امكانية تزويد الشفيلة ، الذين هم في اساس الحضارة والذين يخلقون الثروة والفنى ، بوعي حقوقهم ، وتعطيمهم القدرة على ان يعوا اخيرا المستوى الحضاري الذي بلغته «النخبة» ، ونمط حياتهم الخاص بهم ، وقلة تطليقهم التي يجعلون منها

١ - معروف ان هتلر كان يطلق على حزبه اسم «حزب عمال المانيا الاشتراكي القومي» ، و«الнаци» هو اسمه المختصر .

فصيلة ، والتي يصفونها احياناً بانهم ثورية . ويوم يتم ذلك الارتباط تكون قد غادرنا مجال المناقشات الفلسفية الباطنية عن الطليعة والتكتيك لتدخل في مجال التكتيك الحي للحركة الجماهيرية ، في النشاط السياسي الوثيق الصلة بالحياة . ونحن لا نتجاوز حدود الجرأة اذا زعمنا ان الحركة العمالية كانت ستتوفر على نفسها تاريخاً طويلاً مديداً من التشيع والتعصب والبدع والسلكولائية والانقسامية والشقاق ، وكانت ستخضر الطريق الشائك نحو ما هو اساسي بالنسبة الى الجميع ، اعني الاشتراكية ، لو انها استمدت دعایتها وتكتيکها وسياساتها لا من الكتب وحدها ، وانما ايضاً ، وفي المقام الاول ، من حياة الجماهير . ان لم الحقائق الواقعية التي لا مماراة فيها ان الشبيبة اليوم ، ومن اکثر من زاوية ، اکثر تقدماً من «قادتها» الذين لا يرون غير فائدة «تكتيكية» في اشياء من قبيل الحياة الجنسية هي عين البداهة بالنسبة الى الشبيبة . والحال ان المفروض ان يكون العكس ، اي ان يكون القائد تجسيداً لنوع الاول من الوعي الظبقي وأن ينشئ الثاني ويصوغه . ولعل من لديه اطلاع على الصراعات الايديولوجية في الحركة العمالية قد سار معنا حتى الان بطوع ارادته بقدر او باخر ، ولعله تسأله في اغلب الظن : «لكن ليس ثمة من جديد في ذلك . فما جدوى هذا الخطاب الطويل؟». ان في وسعه ان يقتنع بسرعة بأن العديد من يتفقون معنا من حيث المبدأ يدللون على تردد وتحفظ بمجرد الوصول الى الاشياء العينية ، فتصدر عنهم اعتراضات وشكوك ، وينجحون الى الوقوف موقف المعارض منا ، مستشهادين بماركس ولينين . واننا لنوصي من جديد ذلك الذي قد يعن له ان يفعل ذلك بأن يحاول ، قبل ان يتبع القراءة ، ان يتصور بوضوح خمسة عناصر عينية من الوعي الظبقي وخمساً من العقبات التي تعرّض سبيله . ان أولئك الذين يفهمون الوعي الظبقي على انه استعداد

أخلاقي سيلقون مشقة كبيرة في التسليم بالوقائع التالية :

ان الرجعية السياسية ، وعلى رأسها الفاشية والكنيسة ، طالب الجماهير الشفيلة بالعزوف عن السعادة الارضية ، وبالحشمة والطاعة والامتثال ، وبالتضحيّة في سبيل الامة والشعب والوطن . ولا تكمن المشكلة في انها طالب بذلك ، وإنما في انها تحيا سياسياً وتفتني وتسمّن من تطبيق الجماهير لهذه التعاليم . هي تعتمد اذن على مشاعر الذنب والإثم لدى الفرد المتوسط ، على الحشمة التي القم ايها ، على استعداده لتحمل الحرمان بصر ودعة ، بل احياناً بفرح . ومن جهة أخرى على تشبهه بالفوهرر الماجد العظيم الذي يقدم له «حبه للشعب» كبديل عن الاشباع الفعلي . صحيح ان الطليعة الثورية تخضع هي نفسها لايديولوجيا مماثلة من منظور شروط وجودها والاهداف التي تتشدّها . لكن ما يصح على سبيل المثال بالنسبة الى قائد من قادة حركة الشبيبة لا يمكن البتة ان يصح بالنسبة الى الشبان الذين يقتدون به . واذا كنا نريد ان نزج بجماهير الشعب في ممعان القتال ضد الرأسمال ، وأن نطور وعيها الطبقي ونميه ، وأن نقودها الى التمرد ، فلا مناص من التسليم بأن مبدأ العزوف ضار ، ثقيل الوطأة ، بليد ، رجعي . والحال ان الاشتراكية تزعم ان القوى الانتاجية نامية ومتطورة بما فيه الكفاية لتتكلّل لجماهير جميع الاقطار حياة منسجمة مع مستوى الحضارة . علينا اذن ان نعارض مبدأ العزوف الذي تنادي به الرجعية بمبدأ السعادة الارضية ؟ وواضح اننا لا نعني بذلك اللعب بالبولينغ او شرب البررة . ان حشمة «بسطاء الناس» ، التي هي الفضيلة في نظر الكنيسة والفاشية ، هي من وجهة النظر الاشتراكية افتح اخطائهم ، وواحد من العوامل العديدة التي تعيق وعيهم الطبقي . ان لفي مستطاع الاقتصادي الاشتراكي ان يبرهن على ان هناك ما فيه الكفاية من الثروة والفنى لتأمين حياة سعيدة للشفيلة طرأ .

وحسينا ان نعرض لهذا البرهان بصورة اكثرا دقة وتفصيلا ومتانة،
وبكل عنابة الاستقصاء العلمي .

ان الشفيل المتوسط في المانيا او في اي مكان آخر لا يهتم
بخطة الاتحاد السوفيaticي الخمسية في حد ذاتها ، وانما فقط
بمسألة زيادة تلبياته . وهو يحاكم الامور على الوجه التالي
بنوع ما : «اذا كانت الاشتراكية ستأتينا بدورها بالتضحيات
والعزواف والفاقة والحرمان ، فلا يهمنا بقليل او كثير ان يسمى
هذا البؤس اشتراكيا او راسماليا . ان على الاقتصاد الاشتراكي
ان يثبت تفوّقه بياتاته انه يستطيع تلبية حاجاتنا ومواجهتها
تزيادها» . وهذا يعدل القول ان **بطولة القيادة لا تصلح للجماهير**
الواسعة . واذا كانت حرماتن بعينها تفرض على الجماهير في
المراحل الثورية ، فان من حق هذه الجماهير ان تطالب بالبرهان
الساطع على ان هذه الحرماتن تميّز بطابعها المؤقت عن حرماتن
الرأسمالية . والآتيان بهذا البرهان هو واحدة من الصعوبات التي
تلقيها نظرية امكانية الاشتراكية في بلد واحد . اننا نتوقع هنا
ان تشير هذه الاطروحة السخط والاستنكار . ولا ريب في ان اطلاق
تهمة «العقلية البورجوازية الصغيرة» والابيقرورية (١) لن يتاخر .
بيد ان لينين وعد الفلاحين مع ذلك براضي كبار الملوكين ، وان
كان يدرك ان توزيع الاراضي يشجع «العقلية البورجوازية
الصغرى» ؟ وقد حقق الثورة بصورة رئيسية مع هذا الشعار ، مع
الفلاحين ، لا ضدّهم ؟ وبذلك أنتهك على نحو لا مماراة فيه مبدأ
كبيرا من مبادئ السياسة والنظرية الاشتراكية ، مبدأ
الجماعية . وبال مقابل ، كان للثوريين المجريين مبادئ سامية ،
ولكن لم تكن لهم من فكرة البتة عن العامل الذاتي ؟ فقد كانوا

١ - هنا مذهب الانقسام في اللدّات . -٣-

يعرفون حق المعرفة ما يتطلبه التاريخ ، ولكن ليس ما يتطلبه الفلاح ، وهكذا حولوا على الفور الملكية الكبيرة الى ملكية اشتراكية ، فخسروا بذلك الثورة . يكفي هذا المثال وحده بين العديد من الامثلة الاخرى للبرهان على انه ليس في المستطاع ادراك هدف الاشتراكية النهائي الا عبر انجاز اهداف الافراد الصغيرة وال مباشرة ، وعبر تلبية متعاظمة ل حاجاتهم . في هذه الحال وحدها يمكن ان تنتقل عدوى البطولة الثورية الى الجماهير الواسعة .

قليلة هي الاخطاء الفادحة التي تضارع خطأ تصور «الوعي الطبيعي» على انه مفهوم خلقي . فالتصور الزهدي للثورة لم يُؤَدِ حتى الان الا الى المصاعب والهزائم .

ثمة بعض اسئلة تسمح بالتحقق مما اذا كان يجوز اعتبار طبيعة الوعي الطبيعي طبيعة اخلاقية ، او طبيعة عقلية لا تمت بصلة الى الاخلاق .

اذا كان شخصان هما (ا) و (ب) يتضوران جوعا ، فان واحدهما قد يخنع ويمثل لامرء ، فلا يسرق ، ويتسول او يبيت على الطوى ؟ لكن الآخر قادر على تأمين قوته بوسائله الخاصة . ان شطرا كبيرا من البروليتاريا يعيش بحسب مبادئ (ب) . ويطلق على هذا الشطر اسم «البروليتاريا الدون» . نحن لا نشاطر الرومانسيين اعجابهم بعالم الاشقياء ، لكن لا بد من توضيح المسألة ؟ فمن من الشخصين المذكورين أعلاه يملك في ذاته من عناصر الوعي الطبيعي اكثر مما يملك الآخر ؟ ان السرقة ليست بذاتها مؤشرا من مؤشرات الوعي الطبيعي ؟ لكن التحليل السريع يظهر - حتى لو كان ذلك يصدق حسنا الاخلاقي - ان من لا يتكيف مع القوانين فيسرق اذا عصمه الجوع بنابه ، معبرا على هذا النحو عن رغبته في الحياة ، يحمل في داخله من القابلية للثورة اكثر مما يحمل ذاك الذي يستسلم بوداعة لمذيع الرأسمالية .

اننا نذهب الى القول بأن المشكلة الاساسية في علم نفسى جيد ليست معرفة لماذا يسرق الجائع ، بل على العكس لماذا لا يسرق . لقد قلنا ان السرقة ليست في ذاتها الوعي الظبقي بعد ؛ هذا لا يرقى اليه شئ . فالقرميدة ليست هي المنزل بعد ، لكن المنازل تبنى بالقرميد ، ولا بد ايضا من اخشاب وملاط وزجاج ، وكذلك – اذا ذهب بنا الفكر الى دور الحزب – لا بد من مهندسين وبنائين ونجارين الخ .

اننا نسقط في مأزق لا منفذ له اذا اصررنا على اعتبار الوعي الظبقي مطلبا اخلاقيا يزاحم البورجوازية والناطقيين بلسانها على شجب النشاط الجنسي الفتوى ، وشخصية الموس ، وفظاعة المجرم ، ولا اخلاقية اللص . الا يتناقض تصورنا مع مصالح الثورة ؟ أليس في مستطاع الرجعية السياسية ان تستخدم في دعايتها ضدنا تصورنا الذي لا يمت الى الاخلاق بصلة عن الوعي الظبقي ؟ انها ستفعل ذلك بكل تأكيد ، وهي على كل حال تفعله منذ امد طویل على الرغم من حرصنا في غالب الاحيان على البرهان على اخلاقيتنا . وليس في هذا من جدوى او نفع ، سوى انه يدفع بضحايا الرأسمالية الى احضان الرجعية السياسية شعورا منهم بأننا لا نفهمهم . ثم ان مقامنا في أنظار الرجعية السياسية لا يرتفع بسبب ذلك . فنحن في تقديرها لصوص ، لاننا نريد مصادرة ملكية المالك الفرديين لوسائل الانتاج . هل يتوجب علينا اذن ان نتخلى ، والحالة هذه ، عن هدفنا الاساسي هذا ، او ان نخفيه ؟ افلاتستفله الرجعية ايضا ضدنا ؟

ان كل ما يسمى اليوم اخلاقا او علم الاخلاق يخدم اضطهاد الانسانية الكادحة . وفي وسعنا ان ثبت نظريا وعمليا ان التنظيم الاجتماعي الذي ندعوه اليه قادر على تحويل الفوضى الحالية الى نظام حقيقي ، وهذا على وجه التحديد لانه يمكن الا يمت الى الاخلاق بصلة . ولقد كان موقف لينين من مسألة الاخلاق

البروليتارية مستوحى بلا لبس من مصلحة الثورة البروليتارية .
فكل ما يخدم الثورة أخلاقي ، وكل ما يلحق بها الضرر لا أخلاقي .
ولنحاول الان ان نصوغ المسألة بصورة اخرى : من الممكن ان
تندرج في عداد عناصر الوعي الظبيقي كل ما ينافق النظام
البورجوازي وكل ما يستعمل على جرثومة الثورة ، ومن الممكن على
العكس ان تندرج في عداد معوقات الوعي الظبيقي كل ما يشد الى
النظام البورجوازي ويلعمه ويعززه . يقال ان المتظاهرين خلال
ثورة تشرين الثاني حرموا اشد الحرث ، فيما كانت الجماهير
تتدفق على حديقة الحيوان ، على الا يدعسوا فوق عشب المرجة .
وهذه النادرة ، سواء اصحت ام احسن ابتكارها ، تلخص جوهر
مسألة الحركة الثورية : تبرجز فاعل الثورة .

-٢-

بعض عوامل الوعي الطبقي العينية وبعض عوامل الكف لدى الفرد المتوسط

سوف نحاول هنا ان نجمع ، بدون تبرير نظري عميق ،
شتات عدد من مواقف الفرد المتوسط ، شطر منها متوجه تخصيصا
نحو الوعي الثوري ، وشطرها الآخر يعاكس تكوين هذا الوعي ،
وبعبارة اخرى ، يفعل فعله باتجاه رجعي . ونحن لن نأخذ بعين
الاعتبار سوى المواقف المتوجهة اما الى اليسار واما الى اليمين ،
وليس الموقف المحايدة سياسيا التي يمكن ان تخدم مختلف
الاتجاهات السياسية ، كالفصاحة على سبيل المثال ، والروح
النقدية ، وحب الطبيعة ، الخ ... وكان من الممكن ان نضاعف
الامثلة التي ستتلو الى ما لا نهاية . وقد صفت الامثلة التالية
بالتعاون مع اثنين من المراهقين .

لدى الشبان
(في زمن البلوغ وبعد البلوغ)

منذ قديم الازمان والاحزاب السياسية على مختلف ضروبها توجه بصورة خاصة الى الشبيبة ؛ وليس مرد ذلك فحسب الى ان المستقبل ما يزال امام هذه الاخرة ، بينما امسى المستقبل بالنسبة الى غالبية الراشدين «وراءهم» على حد التعبير الشائع الموفق . ومن ثم فانها خليقة بان تحتل المرتبة الاولى . ولكن لا بد من الاضافة بان طبقة اعمار افرادها التي هي انشط طبقات الاعمار قاطبة واكثرها فاعلية ترتبط ايضا بقدراتهما على التحمس ، بنضوجها الجنسي ، باستعدادها للالتزام وللعمل المرتبطين بكل ذلك . وهذه الصفات ليست متوجهة في حد ذاتها الى اليسار او الى اليمين . فالكنيسة ، على سبيل المثال ، تعتمد عدديا على الشبان اكثر من اعتماد الاحزاب اليسارية عليهم . بيد انه لا يصعب علينا ان نميز عوامل متناقضة في قلب التجربة الفتوية ، تدفع بعضهم نحو اليسار وببعضهم الآخر نحو اليمين . اانا لنلقى في كل مراهق ميلا الى التمرد على اهله الذين يمثلون عادة الاجزء التنفيذية لسلطة الدولة . وهذا التمرد هو المحرك الرئيسي لاتجاه الشبان نحو التيارات السياسية اليسارية . وهو مرتبط دوما بحاجة ، واعية بقدر او باخر ، شديدة بقدر او باخر ، الى اتمام الحياة الجنسية . وكلما نمت الميل الجنسية الطبيعية باتجاه اشتئاه الآخر ، باتت الشبيبة اكثرا افتاكا على الافكار الثورية . وكلما كانت الحاجة الجنسية المثلية فعالة في النفسية ، وكلما زاد كبت وعي الجنس بوجه عام ، اتجهت الشبيبة يمينا . ان الكف الجنسي ، والخوف من النشاط الجنسي ، والشعور بالذنب المرتبط بهما ، هي على الدوام عوامل دافعة باتجاه اليمين

او معيبة على الاقل للطريقة الثورية في التفكير . ان التعلق بالأهل وبالبيت الابوي عامل قوي من عوامل الكف غير قابل للعكس . ونحن نطلق صفة عدم القابلية للعكس على تلك الواقع النفيسة التي لن يمكنها ابدا ان تغدو عناصر ايجابية للوعي الظبي ، والتي لن يمكن ابدا وبالتالي استخدامها من قبل الحزب الثوري برسم الثورة الاجتماعية . وليس هناك بصدق هذه النقطة سوى استثناء واحد ، هو استثناء الاولاد الذين يمتلك اهاليهم قناعات ثورية ؟ فالتعلق بالأهل يمكن ان يغدو في هذه الحال ايجابيا ، لكنه كثيرا ما ينقلب ايضا الى نقيبة ، اذ تنجم عن معارضه الاهل مشاعر رجعية .

ثمة حاجة تقض مضاجع الشبيبة اكثر من اي حاجة اخرى ، وترتدي تلبيتها اعظم الاهمية ، لكننا لا نجد لها مذكورة مع ذلك في اي بيان او برنامج للشبيبة : الحاجة الى مسكن ، الى غرفة مستقلة . وفي مقدورنا ان نضع هذه الحاجة مباشرة بعد التمرد على الاهل كعامل ايجابي من عوامل الوعي الظبي . وهي على كل حال حاجة يعجز عن تلبيتها بأي صورة من الصور النظام الذي تريده الرجعية السياسية . ثم انها لا يعاكسها اي عامل من عوامل الكف ، وهي موجودة حتى لدى الفتاة الرجعية . كذلك فان الحاجة الى الحياة في مجتمع من الشبان عامل ايجابي هي الاخرى ، وان تكون موضع معاكسه مستمرة بفعل التعاقد بالاسرة و «الحنين الى البيت» او المنزل . ومن الممكن الخلاص من هذا التعلق وهذا الحنين اذا ما نظم المجتمع تنظيما حصيفا ، اي اذا ما تحول المجتمع الى بيت . ولدى الشبيبة قاطبة تقريرا نازع قوى الى الرقص ، لكنه بخلاف الرباط الاهلي عامل قابل للعكس ، اي انه كاف ، كابح في الظروف العادية ، ولكن قد يسهل التلامح الثوري اذا وجدت مشكلة علاقة السياسة بالحياة الخاصة حلا ثوريا . ولقد كان المهرة من محركي جماعات الشباب في المانيا يفلحون في

ذلك احياناً .

اما في المانيا الراهنة فان الحاجة الى الحياة الجماعية ، مثلها مثل النزوع الى الرقص ، تخدم الى غير ما حدود الرجعية السياسية التي تتولى تنظيم تلك الحاجة وهذا النزوع ، لدى المسيحيين في شكل «لقاءات» ، ولدى النازيين في شكل روابط جماعية للشباب .

لقد وردتنا من المانيا القصة التالية :

«لقد تحدثت مؤخراً الى تلميذة من برلين ، لها من العمر سبعة عشر عاماً ، قضت عطلتها الصيفية هنا . انها تداوم على مدرسة في فيلمرسدورف ، وقد روت لي عرضاً بعض اشياء يمكن ان تحظى بكبير اهتمامك .

«يتمتع الصبيان والبنات في (الشبيبة الهاتلرية) وفي (اتحاد الفتيات الالمانيات) بحرية لا تصدق في المدرسة وفي البيت ، تتجلى بالبداوة في الصداقات والنشاطات الجنسية .

«في الماضي ، ما كنت فتاة من صفتها ومدرستها لتجربوا الفتاة على ان يجعل صديقاً لها ينتظرها عند باب المدرسة . اما اليوم فان الصبيان (ولا سيما اعضاء «الشبيبة الهاتلرية») يتجمعون زمراً زمراً امام المدرسة ، ولا يرون في ذلك امراً غير طبيعي . و«اتحاد الفتيات الالمانيات» ما عاد يسمى الا باسم (Bubi Druck Mich اي عانقني يا صبي) . وقد توجب حل شعبة «اتحاد الفتيات الالمانيات» في داخلهم لأن ست فتيات (اقل اعمارهن عن 18 سنة) غدون حوامل .

«بيد انه من المثير جداً للاهتمام مع ذلك ان نرى كيف تؤدي محاولة تنظيم الشبيبة الى ارتخاء القيود العائلية ، لأن هذه الامثلة لها مغزاً كبيراً ، وقد تأكد لي صحة ذلك فيما بعد» .

لا يصح القول بأن الصبيان والبنات يتمتعون بـ «حرية لا تصدق» . فمن يزعم ذلك يدل على انه لا يرى الاوضاع الحقيقة ،

وال حاجات الحقيقية ، والتناقضات الحقيقة . فحتى في الماضي
 كانت البنات يحملن الصبيان على انتظارهن أمام المدرسة ، ان لم
 نقل أمام المدرسة المذكورة بالذات . وانما من وجهة نظر الاخلاق
 البورجوازية وحدها كان «الحبل» وحمل الصبيان على «الانتظار»
 أمام المدرسة يبدوان علامة على «حرية جنسية» للشباب .
 والحريات التي تحصل عليها شبيبة داهلم اليوم كانت مكتسبة
 منذ زمن بعيد في نيوكون (١) . وعليه ، ان ما يجب ان يؤخذ
 بعين الاعتبار هو الكل ، المجموع ، اذ ينبغي ان تتبين اولاً التناقض
 الهائل الذي يهصر الشبيبة الهاتلرية : فمن جانب تربية عسكرية
 واستبدادية مع فصل بين الجنسين ، ومن جانب آخر ، وبسبب
 اكتساع حياة الشبيبة طابعاً جماعياً ، بتر للروابط العائلية ،
 وزعزعة للأخلاق العائلية التي تتعايش مع ايديولوجيا عائلية فاشية
 بالغة القوة . ان على الثوريين الالمان ان يتبعوا باهتمام كبير اشباه
 هذه التناقضات وأن يفسروها لالمعنيين بها . وفي الحالة التي
 تشغلنا هنا ، يجب تشجيع الشبيبة على قطع او اصرها بالبيت
 العائلي ، مع التوكيد الصريح على تناقض هذه القطعية مع العبادة
 الرسمية للزعيم والاسرة . وينبغي ايضاً ان نظهر للعيان ان
 الشبيبة ، التي تعرب عن **ظهورها الى الحرية والى تقرير المصير**
الذاتي بغضها الروابط العائلية - وهو امر يحظى بموافقتنا -
 تسقط في الحقيقة في شراك علاقة استبدادية اخرى ، علاقة
 معسكر الخدمة المدنية او الرابطة الفاشية حيث تجد نفسها ملزمة
 من جديد بأن تلزم الصمت . وفي الميدان الجنسي ، تحديداً ،
 تظهر للعيان التناقضات في اقصى درجات الوضوح . فـ «الاخلاق
 الاكثر حرية» تتطابق مع الاتجاه التقديمي لدى الشبيبة الهاتلرية ،

١ - فيلمرسدورف وداهلن ونيوكولن: ضواح في برلين . ٣٥

لان هذه الاخلاق ثورية وان على نحو مبهم وذاتي ؟ بيد ان قيادة ثورية لن تقدم ابدا على حل رابطة للفتيات لان بعض الفتيات قد حملن ؟ وإقدام قيادة «حزب عمال المانيا الاشتراكي القومي» على الحل يبرهن بلا لبس - ولقد كن مراسلنا على درجة من السذاجة حالت بينه وبين رؤية ذلك - على ان الاخلاق المذكورة محرجة ومضايقة لها ؟ وهي تناقض بالفعل كل تصورها الاخلاقي. ان علينا ان نشرح بوضوح لهؤلاء الصبيان والبنات المتهليين حقهم الكامل في تقرير مصيرهم بأنفسهم وفي اخذ المجتمع ل حاجاتهم على عاتقه ، وفي المقام الاول حاجاتهم الجنسية . ومن يتصور ان الحرية الجنسية متحققة من الان في الموقف الراهن يتعمّم ، اولا ، عن ان ذلك النزد اليسير من الحرية يكفي وحده لحمل جهاز الدولة الاخلاقي على التدخل ؟ ويتعمّم ، ثانيا ، عن اننا لا نزال عند الخطوات الاولى واننا لا نستطيع وبالتالي ان نتكلم عن الحرية . وهذا ما دامت الایديولوجيا السياسية والاجتماعية بأسرها تتعارض مع ذلك .

وما دام الصبيان والفتيات لا يملكون مساكن يمكنهم فيها ان يتغادروا المزعجات والمنففات ، ولا توفر لديهم مضادات الحمل لتجنب الحبل ، مثلما لا تتوفر لديهم المعلومات الاولية والاساسية عن متطلبات الحياة الجنسية ومصاعبها بوجه عام .
وما دامت تربيتهم تهيئهم وتعدهم سلفا للتخطيط في صراعات خطيرة منذ ابتداء حياتهم الجنسية .
وما دام الصبيان والفتيات لا يختلطون في روابطهم وجماعاتهم .

وما دام متعدرا عليهم ان يقرروا بالتضارف مع معلميهم كيف ينبعي ان يتم تنظيم تاهيلهم واعدادهم لهام الحياة الاجتماعية .
وما داموا يتعلمون تواریخ ولادة ملوك بروسیا ووفاتهم ، لا تاریخ الصبيان والبنات الاكثر ادقاء والاشد حرمانا في ضواحي

برلين وهامبورغ وجوتبرورغ ، وفي أبأس، اكواخ الفلاحين .
ان المثل الاعلى للشبيبية لا يمكن بحال من الاحوال ان يكون
خمة ((فوهرب)) ما بصورة عمباء ، والموت في سبيل مصالح
الرأسمالية المتصورة على انها هي عينها ((مصالح الوطن)) ، وانما
مثلاها الاعلى الوحيد ان تفهم حياتها بالذات وان تنظمها كما يحلو
لها . ان الشبيبية لا يمكن الا ان تكون مسؤولة عن نفسها ؛ وانما
على هذا الاساس وحده يمكن ان تردم الهوة التي تفصل المجتمع
عن شبيبيته . ويوم تفهم اسباب هذه الهوة ، ستفهم ايضا انها
مضطهدة ، وستجدو ناضجة للثورة الاجتماعية . ويوم تردم عمليا
تلك الهوة ، وتعدل النظام الاجتماعي طبقا ل حاجاتها ، وتجد منفذًا
فعليا ، عينيا وموضوعيا ، لميلها الى الحرية ، ستكون قد أصبحت
منفذة الثورة الاجتماعية .

ليس في وسعنا ان نبرهن نظريا لشبيبة جميع الاقطارات على
ضرورة الثورة الاجتماعية ، لكن في وسعنا ان نشرح هذه الضرورة
انطلاقا من حاجات الشبيبة وتناقضاتها . وفي نقطة المركز من
هذه الحاجات والتناقضات تلفي المسألة الحاسمة ، مسألة حياة
الشباب الجنسية .

يبين العمل في اوساط الشباب ، بخلاف ما تزعمه عادة
الاحزاب السياسية ، ان فهم الوضع الطبقي سطحي للغاية وغير
مستقر لدى المراهق بوجه عام : فنادرًا ما نصادفه بشكله الصحيح
لدى المراهقين الناضجين كل النضج فكريًا او المتحدرين من اسر
تتمتع بقناعات ثورية ولم يجعلهم يتعرضون لاضطهاد . ان وضع
الתלמיד المتدرب مولد للفتور وللاكترات اكثر مما يولده موقفا
ثوريا . ولا يمكن ان يضحي هذا الوضع ايجابيا الا بالتضارف مع
عوامل اخرى ، متعلقة بالوضع الطبقي ، كالحاجة على سبيل المثال
الى اوقات فراغ افضل . بل ان الجوع عينه ، بخلاف التصورات
الشائعة ، عامل من عوامل الحياة الهامشية وتشكيل العصبات اكثر

منه عامل وعي الوضع الطبقي . والجوع ، مثله مثل سواه من ضروب الحرمان ، بعض بانيايه ، فيمن بعض ، شبيبة «ف. ه» او الشبيبة المسيحية . بيد ان هذه العوامل لا يمكن ان تصبح قوى ايجابية قوية الا اذا عقلت في علاقتها بعوامل اخرى موجودة لدى الشباب ، كالظالم الى التجارب الرومانسية ، وال حاجات الجنسية ، والتبعية للأهل . ولا مناص من ان ندرك ان الجوع وحده اذا لم يحطم المعنويات ويُثبط العزائم نهائيا يدفع بالجائعين اكثر ما يدفع بهم الى احضان مختلف منظمات البر والاحسان من النمط البورجوازي . وتظهر التجربة العينية ان الجوع حافز اشد فعالية بكثير لدى المراهق اذا ما اقتربن ، على سبيل المثال ، بالخوف من التربية الموجهة التي يسهل على المراهق ان يرى فيها مؤسسة طبقية .

ان الميل الى التعلق بزعيم وبأفكار ليس له لدى الشباب معنى سياسي محدد ، بل هو قابل للاستخدام لصالح اي اتجاه ؛ وعليه فإنه عامل ضار بالآخر اذا لم يستعمله الحزب الثوري بروبية و دراية .

ان حب الرياضة وحب الاستعراض والزي العسكري، اللذين يستهويان البنات (وبالعكس) ، والانشيد العسكرية هي في الظروف الراهنة موقات للحركة البروليتارية ، لأن الرجعية السياسية تتمتع بقدرات اعظم على تنظيمها . ولكرة القدم بوجه خاص تأثير مباشر على اللاتسيس ، وفيها تشجيع وبالتالي للميول الرجعية . لكن هذه الميول قابلة للانعكاس من حيث المبدأ ، وقابلة ايضا للاستغلال من قبل اليسار ، شريطة ان يتم التخلص عن الاطروحة القائلة بكلية قوة الجوع .

ان المنظمات الثورية لم تجد حلا لهذه التناقضات ، ولم تتم «الميول الثورية وتطورها ، ولم ترجم العقبات والمعوقات النفسية ؛ بيد انه لا يجوز ان نستنتج من ذلك غياب الشعور الظبقي ، بل

ينبغي بالاحرى ان نستنتج وجود ثغرات بسيكولوجية في العمل الثوري . هذا ما يؤكده ويشتبه التقلب الذي لا يصدق في تعداد الاعضاء المنتسبين الى الجماعات الثورية ؟ فقلة قليلة هي وحدتها التي تبقى فيها ، ولسنوات قليلة لا اكثر . انتي لا املك ارقاما ، لكن التجربة اظهرت ان الملايين من المراهقين والراشدين ، رجالا ونساء ، ومن مختلف الاوساط ، قد مروا بالمنظمات الثورية خلال العقد الاخير من دون ان ينضموا تحت لواء القضية الثورية ومن دون ان يتعلقا بها . ما الذي دفع بهم الى المنظمة الثورية ؟ لم يكن هناك لا زyi عسكري ، ولا مكسب مادي ، لم يكن هناك سوى قناعة اشتراكية مبهمة ، سوى شعور ثوري ، والحال ان المنظمة لم تعرف كيف تطورهما ، ولهذا لم يبقوا فيها . لماذا أصبحوا فيما بعد لامباليين ، او لماذا اتجهوا نحو الرجعية السياسية ؟ لانه كانت كامنة فيهم ايضا بنية معارضة ، بورجوازية ، لم يتم تدميرها . لماذا لم يتم تدمير البنية الاخيرة هذه ، ولماذا لم يجر تشجيع تلك البنية الاولى وتطويرها ؟ لانه كان هناك جهل بما ينبغي تحبيذه وبما ينبغي تدميره . ولم يكن ممكنا الوصول الى ذلك بـ «الانضباط» المحس . ولا كذلك بالموسيقى والمسيرات . فهذه اشياء يعرف الاخرون كيف يفعلونها خيرا منا . ولا اخريا بالشعارات التي لا ينجم عنها مفعول عيني ، لأن ضوابط الآخرين ولجهتهم السياسية كانت افضل وأقوى . لقد كان الشيء الوحيد الذي تستطيع المنظمة الثورية ان تقدمه للجماهير من دون ان تخشى المزاحمة والذي لم تقدمه في الواقع ، الشيء الوحيد الذي كان يمكن ان يستوقف الجماهير التي كانت تتدفق ، وأن يسترعى انتباه جماهير اخرى ويحتجذبها ، هو معرفة ما يرومته ويشتهيه عبد الرأسمالية بنفسه من دون ان يكون على وعي صاحبه ، وهو الجاهل ، المضطهد ، المتطلع الى الحرية والى حماية استبدادية في آن واحد ، وصياغة ذلك والتعبير عنه بدلا منه ،

بلغته ، والتفكير به وتصوره بالنيابة عنه . لكن منظمة كانت ترفض كل بسيكولوجيا وتنبذها بوصفها مناهضة للثورة لم تكن ناضجة ولا مهياً لها مثل هذا العمل .

كيف يتجلّى أحجلاً الوعي الطبيعي لدى النساء؟

لم تكن بذات جدوى كبيرة الصيغ القائلة بـ «الدخول في عملية الانتاج» و بـ «الاستقلال عن الرجل» و بـ «حقها في جسدها» (ناهيك عن ان الامر لم يتعد في يوم من الايام تكرار هذه الصيغة) . صحيح ان الرغبة في الاستقلال الذاتي الاقتصادي ، وفي وضع حد للتبغية للرجل ، وفي الاستقلال الجنسي بوجه خاص ، هي جوهر الوعي الطبيعي لدى النساء . لكن الخوف من فقدان الزوج المقدم للطعام والكساء بنتيجة تshireع زواجي سوفياتي ، ومن عدم امتلاك موضوع جنسي مضمون قانونيا ، كذلك الخوف الذي يسيطر على جميع النساء من الحياة الحرة بوجه عام ، وقدرتهم الكبيرة على التعلق والارتباط ، الخ ... هذا كله يشكل عوامل سلبية ، كافية ، كابحة ، ذات قوة معادلة على الاقل . ولقد كانت واحدة من العقبات الكبرى أمام وضوح الرؤية السياسية تمثل في خوف النساء ، لا البورجوaziات الصغيرات بوجه خاص فحسب بل ايضا الشيوعيات ، من احتمال «انتزاع» اولادهن منهم بسبب التربية الجماعية التي يجري التفكير بانتهاجها ذات يوم ؟ ولم يكن هذا الخوف يتجلّى بالطبع في المجتمعات التي يعربن فيها عن تأييدهن لهذا الطراز من التربية ، بل كان يتجلّى في صورة منازعات بيئية مع الزوج وفي شكل كف وكت سيسبيين . لقد كان يفترض فينا ان نعلم ان التمرد على الزواج من حيث انه رابطة

اقتصادية وقيد جنسي كان يمكن ان يتحول الى رافعة قوية للحركة الثورية لو اتنا تناولنا بالتحليل الجدي والصريح والصادق هذه المسائل التي هي في منتهى الامانة بالنسبة الى النساء . وبدلا من ذلك ، كان الدعاة ، الذين لم تكن لديهم هم انفسهم افكار واضحة ، يشوشون المسألة بكلامهم عن الزواج السوفيتي ، متباهين في الوقت نفسه بتعزيز اوامر الزواج من جديد في الاتحاد السوفيتي ؟ وهكذا ما كان في وسع النساء المتسلطات الذكاء الا ان يجبن : «انتم تدعون هنا الى حل الزواج والاسرة ، لكن المرأة هناك باتت من جديد تابعة لزوجها» ، او بالعكس : «انتم تريدون اياحتنا جميعنا للرجال» . ولقد كانت اشباه هذه التناقضات تستأهل الدراسة العلمية الدقيقة من قبل الجماعات المتخصصة في علم النفس ، كما كانت تتطلب حلا في منتهى الوضوح والدقّة من جانب المنظمات السياسية . وهذا امر لم تكن له أهميته بالنسبة الى عاملات الصناعة وحدهن ، وهن اللواتي انضجنهن العمل في المصنع وتعزز اتجاههن الى اليسار ، مع ان الاحتياك بهن كان واهنا مثله مثل الاحتياك بالآخريات ، وانما ايضا ، وبوجه خاص ، بالنسبة الى الفالبية العظمى من ربّات البيوت ، ومن المستخدمات في البيوت ، والبائعات ، الخ . . . وتدلنا تجربتنا ان الربط غير الزوجي او الرغبة في مثل هذه العلاقة عامل قمين باطلاق حركة قوية من عقالها ضد المؤثرات الرجعية . لكن نظرا الى ان الحنين الى الامان الزوجي غالبا ما ينضاف الى تلك الرغبة ، فليس من الممكن ان تتطور هذه الحركة بمجرد الفارق بين الزوجي واللازوجي الغاء شكليا على نحو ما فعل التشريع السوفيتي . ان الكثيرات من النساء ثوريات في المصنع ، رجبيات في البيت . ويكمّن هذا قبل كل شيء في افكار اخلاقية وثقافية معاكسة للمصالح الاقتصادية والجنسية . وتدلل الحركة النسوية القائمة في منظمات بورجوازية شتى على دوافع

ثورية قوية تنزع عن وعي الى الاستقلال الذاتي الاقتصادي ، وعن غير وعي الى الاستغلال الذاتي الجنسي ، وعلى كل حال الى التغيير ، الى تحويل الوضع الراهن . ان الاشتراكية هي وحدتها التي تستطيع ان تأتي بجواب عملي على هذه المسائل ، لكن الاشتراكيين لا يحركون ساكنها ولا يبذلون جهدا لتوضيح افكار النساء الفامضة ، المهمة ، لافهامهن انهن يطلبن في آن واحد اشياء متناقضة ، وانهن يستشعرن اهدافاً اشتراكية لكنهن لا يستطيعن ان يصفن هذه الاهداف بوضوح ودقة ، وانهن يندفعن وبالتالي الى تمرد عاطفي او الى بانکهورست^(١) . ان شيئاً ما لن يشرع بالحركة الا اذا طرحت على بساط البحث تلك الشؤون الصغيرة التي لا تقع تحت حصر من الحياة الشخصية وسلط الضوء على صلاتها بالحياة الاجتماعية ؟ ومن الممكن عندئذ ان ترى النور مناقشات ، وان تكون الغلبة في هذه المناقشات لا ولئك الذين لديهم شيء يريدون ان يقولوه ؟ وهؤلاء لا يمكن ان يكونوا سوى الاشتراكيين ، شريطة الا يقعوا في المشادات الحزبية الشكلية . ولو جوبه الرجعي بشرح وتفسيرات مناسبة لكان مآلها الى الفشل الذريع . فقد تطورت بين النساء الالمانيات ، في نهاية ١٩٣٣ ، حركة جديرة بالاعجاب وكبيرة النفع ، يمكن لهن فيها ان يتلمنن الجدل (الدياليكتيك) خيراً من تعلمه في الكتب . وهن يرفضن وضع المرأة في البيت ، وهذا عامل ثوري ، لكنهن يريدن بدلاً من ذلك ان «يكنّ نساء المانيا مناضلات مثل بروند هايلد»^(٢)

- ١ - ايميليين بانکهورست ١٨٥٨ - ١٩٢٩) من رائدات الحركة النسوية الانكليزية ، اسست في عام ١٩٠٨ «اتحاد النساء الاجتماعى والسياسى» الذى مثل الجناح اليساري في حركة مناصرة حق النساء في الانتخاب .
- ٢ - اميرة من المصور الوسطى خاضت صراعاً ماجداً ، وانتهت حياتها بصورة مفجعة بسبب الخيانة . -٣-

وهذا في شكله الراهن رجعي . ان علينا ان نتبين بوضوح ان ايديولوجيا الام ، التي يروج لها النازيون بجميع الوسائل ، هي من طبيعة معادية للجنس : فان تكون المرأة اما يتعارض مع كونها حبيبة . والنساء يردن الشيئين معا ، لكنهن لا يجدن من مخرج للتناقض الذي تختلفه الاخلاق الرأسمالية بين الشيئين ، فينكرن انفسهن تحت ضغط الرجعية السياسية من حيث انهن كائنات جنسية . وحركة مناصرة المرأة ، التي هي في شكلها الراهن حركة رجعية موجهة ضد الشعور الطبقي ، قابلة للانعكاس بسهولة ، لانها عامل من عوامل التغيير . وينبغي ان نلاحظ انه من النادر نسبيا ، لدى النساء ايضا ، ان يتولد موقف ثوري عن الجوع في ذاته وعن هم اطعام الاولاد ؛ وانما يتولد عن ذلك في احيانا كثيرة الخوف من السياسة بوجه عام ، ومعارضة النشاط السياسي الذي قد يقوم به الزوج والابناء ، وكذلك الالاكترات او البفاء . ومن الممكن ان تصبىع هذه الهموم والهواجس محركات رئيسية للوعي الطبقي فيما اذا وضعت في موضعها الصحيح ضمن سياق علاقاتها الحقيقية بالقوى الاجنبية الفاعلة في الاتجاه نفسه او في الاتجاه المعاكس . انها لمسألة في منتهى الصعوبة ، على سبيل المثال ، ان نعرف ما اذا كان الدلال والاهتمام بالجمال الجسماني ، اللذان يؤلفان اليوم عقبة كاداء امام الفكر والشعور الثوريين ، قابلين للقلب بشكل من الاشكال . انسانا لا نحسب انه في امكان اي منظمة من المنظمات الثورية ان تفلح في تلقين جمهورة النساء البساطة ورفض الفنون اللذين تتحلى بهما اليوم النساء الشيوعيات . وبين الاخذ بالترهات البورجوازية والأخذ بنمط حياة زهدى ، يجب ان نجد الطريق الذي يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الصراع الطبقي و حاجات الجمال الطبيعية على حد سواء . ان ساستنا يرفضون ان يصدقوا ان هذه الامور تستأهل المناقشة . ولهذا ندعوهم الى دراسة الاولية التي بفضلها تبقى الرجعية السياسية

على النساء في معسكرها . و مما لا جدال فيه ان مسألة مستقبل الاسرة وتربية الاطفال هي اهم المسائل بالنسبة الى حركة مناصرة المرأة . ولقد كان نشاط المنظمات السياسية الجنسية الالمانية في تفسير حقيقة ان الاشتراكية تعطي اشكالا اخرى للحياة المشتركة للرجل والمرأة والولد ، وبوجه خاص في تفسير حقيقة ان ما يسمى بتدمير البشارة للاسرة انما يعني استقلال المصالح الجنسية من الروابط الاقتصادية ، كان ذلك النشاط عظيم النجع والجدوى في اكتساب النساء لقضيتنا . ان التطور الراهن للایديولوجيا العائلية في المانيا يستأهل اعظم الانتباه والاهتمام ، وعلى سبيل المثال ما يتعلق بالتناقض بين الاسرة وبين الخدمة في «ف. ه» بالنسبة الى الشباب . ودراسة هذا التطور دراسة دقيقة مستفيضة هي التي ستتيح لنا الوسائل لسياسة نسوية ناجحة فعالة . ونظرا الى ان البقاء يتزايد على نحو محظوظ في ظل الفاشية ، تحت تأثير الضغط الاخلاقي ، فان اكتساب البقاء لقضيتنا يؤلف ايضا جزءا من السياسة البروليتارية من عدة وجوه .

ان العديد من الواقع في المانيا تتيح لنا ان نتبين ما اذا كان الوعي الطبقي او مقدماته قائمة بين السكان وكيفية ذلك ، وما ينبغي على القيادة الثورية ان تفعله . لقد اتينا بذكر «حركة برونو هايلد» التي من خلالها تمرد النساء بشكل مبهم غامض على العودة الى البيت وعلى العبودية الزوجية . لقد اضطر غوبنر ، مؤخرا ، الى تحديد موقفه حيال مسألة هي في غاية الصعوبة بالنسبة الى القومية - الاشتراكية . وبعد ان استولى «حزب عمال المانيا الاشتراكي القومي» على مقايد السلطة ، شدد الى حد كبير من قبضة القوانين التي تحظر الاجهاض وتحاشي الانجاب ، وعهد بتربية الاطفال بتمامها الى المنظمات الدينية والعسكرية ، وأعلن ان الاسرة هي قاعدة الامة والدولة ، وشهر المبدأ القائل ان «المرأة الالمانية لا تدخن» ، وكافح قصة الشعر الغlamie ، وأعاد فتح

ابواب المواخير ، وطرد النساء من المصانع ، واعطى الرجل من
 جديد سطوة شبيهة بتلك التي كانت له في عهد ما قبل الطوفان،
 كما منحه اشياء اخرى كثيرة . وهكذا اطلق العنوان ، انسجاما مع
 وظيفته التاريخية ، لردة ثقافية رجعية شرسة . ولا يدخلنا ريب
 في ان العديد من الكوادر وضعت هذه التدابير موضع تطبيق
 بحرفيتها وحدافيرها . ففي واحدة من المدن الصغيرة نشر معلم
 للصابون أعلانا يصور فتاة جميلة تمسك بصرة من مواد التنظيف
 باليد . وقد منع مسؤول نازي هذا الاعلان ، بحجة انه يصد
 «حس السكان الاخلاقي» . وقد ارغمت اشباه هذه الوقائع غوبلنز
 على رفع صوته احتجاجا على «رقباء الاخلاق العديمي الكفاءة وعلى
 رسول الحشمة الكذبة» . وقد رفض التطرف في الاحتشام ،
 وانحى باللائمة على أولئك الذين يريدون ان ينشؤوا في المدن
 والارياف لجانا للخشمة لن يكون من شأنها ، لو قامت ، سوى
 ان تفضي الى الرياء والنعيمة والتشهير . وقال : لقد باتت النساء
 يخشين الخروج او الذهاب الى المطعم بمفردهن ، والخروج مع
 شاب بدون رفقة ، وارتداء أنيق الملابس ، الخ ... وبالحرف
 الواحد : «... واذا دخنَ سيكارة ضمن نطاق الاسرة او بصحبة
 الآخرين ، فلا يجوز لنا ان ندينهن على ذلك وأن نبذهن» . ان
 القومية - الاشتراكية ليست حركة تقوية (١) ، ولا يجوز تجريد
 الشعب من فرح الحياة ، بل ينبغي ايلاء الحياة المزيد من الاهتمام،
 والتقليل من الرياء ، وانتهاج طريق الاخلاق لا طريق التزمت
 الاخلاقي . ما معنى ذلك ؟ ماذا ينبغي ان نفهمه من هذا الخطاب ؟
 اولا ، ان السياسة الثقافية القومية - الاشتراكية قد اثارت
 امتعاضا شديدا لدى النساء ، وإلا لما تكلم غوبلنز على هذا النحو .

ثانياً ، أن هذا الامتعاض أخذ أبعاداً كبيرة ، وإلا لما تدخل غوبلز ، مثله مثل روحهم من قبل ، في عكس اتجاه القومية – الاشتراكية وايديولوجيتها . فالقادة النازيون في غاية البراعة في علم النفس الجماهيري ، وهم يُؤثرون أن ينتهيوا مبدأ من مبادئ رؤيتهم للعالم على أن يعرضوا للخطر أساس سلطتهم .

ثالثاً ، أن غوبلز ليس لديه ما يقوله ، لا يفهم ولا يستطيع أن يحل التناقض الذي تتباطط فيه القومية – الاشتراكية بايديولوجيتها الرجعية حين تواجه أنصار الثورة ، وهذا في الميادين طرأ .

رابعاً ، أن المسألة هنا هي إلى حد ما مسألة شكل مبهم ، مشوب ، من الوعي الطبقي الاشتراكي ، كان يمكن للنشاط الاشتراكي أن يضعه نصب عينيه وأن يستفيد منه لو أنه بدأ بتوضيح المشكلة لحسابه الخاص . فمشكلة علم النفس الجماعي هي تفزيز الشعور الثوري لدى أنصار النازيين من خلال لفت أنظارهم إلى النتائج الرجعية لسياسة هؤلاء الآخرين ، وكذلك الكشف لعضو الحزب الاشتراكي – الديموقراطي عن كتبه **البورجوازي الصغير** ، وبوجه عام تسلط ساطع الضوء على التناقضات ، بدلاً من أن نرى في عضو «ف. ه» مجرد رجعي ، وفي عضو الحزب الاشتراكي – الديموقراطي مجرد ثوري «لا يرى الأمور بكمال الوضوح بعد» .

خامساً ، أن مثل هذا التدخل من جانب غوبلز يبعث الحياة من جديد في العقيدة القومية – الاشتراكية لقدماء الاباع الدين آلت بهم الحال إلى التردد ، ويعيدهم إلى معس克هم السابق ، ويربط في الوقت نفسه هم المعارضين السافرين ، اذا لم نثبت بصورة عينية ان المشكلة بأسرها لا حل لها في ظل الرايخ الثالث . فما زلت اتسائل عن وجاهة هذا الحل ؟

ان توطيد ركائز الاسرة وإلزام المرأة بيتها يقتضيان تدابير كتلك التي اصابة النازيون اذ اخذوها ، لكنهما بناقضان مطلق المناقضة

تقرير الحياة الهداف الى التخفيف من حدة الامتعاض والتمرد .
 ناهيك عن ان العنصر المركزي في الايديولوجيا النازية هو اخلاقها
 (الشرف ، الطهارة ، الخ . . .) . ولو وجد في الاجتماعات شخص
 على درجة كافية من التبصر ليسأل به تتميز الاخلاق عينيا عن
 التزمنت الاخلاقي ، لحل بكل مسؤول نازي حرج شديد . وكان
 يكفي في هذه الحال صياغة السؤال بشكل عيني . وعلى سبيل
 المثال : ان منع المرأة من الخروج مع شاب هو من قبيل التزمنت
 الاخلاقي ، لا من قبيل الاخلاق التي تتطلبه القومية - الاشتراكية
 وعليه فان خروجها بمفردها يجب ان يكون مباحا في هذه الحالة .
 وكيف الحال حين يقبل شاب المرأة ؟ اهو تزمنت اخلاقي ام اخلاقي ؟
 واذا كان يشتهي ، فضلا عن ذلك ، ان تكون له علاقة غرامية بها ؟
 لكن ذلك هو من قبيل فرح الحياة ، اليه كذلك ؟ واذا ارتضى
 القومي - الاشتراكي ، عند هذه النقطة ، بضحية اخرى ، وسلم
 حتى بالحب الحر ، وهو امر نحسبه قادرنا عليه كل القدرة ، فمن
 الممكن في هذه الحال ان نسائله اذا لم تكن مثل هذه الاباحة تنزل
 الضرر بمتانة الزواج وصلابة الاسرة ، وأن نسائله كذلك عما سيحل
 بالاطفال الذين قد يولدون من ذلك الحب . واذا ما قبل صاحبنا
 النازي بذلك وشرح ان الطفل لا يكون طفلا الا اذا كان سليلا
 للآريين (١) ، فسيكون في ذلك مسوغ لسؤال آخر ، سؤال لمعرفة
 ما اذا كان من المفترض ان تكون نتيجة كل فعل حب هي الحمل ؟
 واذا كان الجواب بالسلب كان من حقنا ان نسائله ماذا يتبعه فعله
 في هذه الحال ، الخ . . . ولن يماري احد في ان مثل هذه
 المناقشة الفنية يمكن تنظيمها في اشكال ليس لها البتة طابع

١ - معلوم ان النازيين كانوا يعتقدون ان العرق الاري المزعوم هو الشكل
 الاسمي للانسانية ويتمثل بالالمان . - ٤٧ -

سياسي ، كما لن يماري في انها ستكون أشد احراجا للنازيين من
آلاف المنشير السرية ، وهذا لسبب بسيط وهو ان النازيين
انفسهم سيقومون في هذه الحال بالدعاه لحسابنا عن دون علم
منهم . اليه هناكوعي طبقي ؟ اتنا لتفاه في جميع منافذ الحياة
اليومية . افسيكون من المستحيل علينا تطويره ، لانتنا سنذهب
في هذه الحال الى السجن ؟ خدوا الاسئلة التي تحاصر عن قرب
كل نازي ، تلك الاسئلة التي لا تستطيع الرجعية جوابا لها ، ولن
 تكون بكم حاجة الى امعان الفكر في مشكلة الوعي الطبقي . دور
الطليعة في الاشراعية ؟ الحق انه يمكن ه هنا ! في الضامين العينية
للديموقراطية البروليتارية ، لا في مصطلح الديموقراطية
البروليتارية او شعارها الذي لا يمثل شيئا ملماسا ليس اليه
 بالنسبة الى ٩٠ بالمئة من الافراد . وفي وسعنا ان نجد آلاف
الامثلة ، في شتى الميادين ، التي تدل على انه ليس باستطاعة
النازيين ان يجدوا جوابا لمشكلة واحدة اذا ما طرحت طرحا عينا
ومنطقيا بكل مستتبعاتها ، سواء اكانت مشكلة الدين ، ام مشكلة
النقابة ، ام مشكلة علاقة رب العمل بعماله ، ام مشكلة مصر
الطبقات المتوسطة ، الخ ... والمطلوب طرح الاسئلة النموذجية
التي تستثير باهتمام الناس قاطبة ، من دون برنامج مسبق ،
انطلاقا من حياة البشر وردود افعالهم العفوية . وليس امام القيادة
الثورية اليوم من مهمة اهم من اكتشاف النقاط الضعيفة في
القومية - الاشتراكية ، وتنظيم المناوشات بين الجماهير بحيث
تتعذر للفلتتها ويكون لها على العكس امتداد واستطاله من دون ان
يترب على ذلك خطر فعلي . ان الثورة لا يمكن ان تنمو وتتطور الا
انطلاقا من تناقضات الحياة الراهنة ، لا انطلاقا من المداولات
والمساجلات حول التناحرات الاميركية - اليابانية او من النداءات
والدعوات الى المظاهرات والاضرابات التي لا يسع انسانا من
الناس ان يقوم بها على الوجه المرام . كما لن تنمو وتتطور بمجرد

الاكتفاء بدمغ النازيين بأنهم مجرمون وساديون ، وإنما فقط من خلال مواجهة ارادتهم الذاتية بعجزهم عن حل المشكلات . لسنا ملزمين هنا بالتشبيث بإثبات صحة افكارنا بنسبة ١٠٠ بالمائة او بمقابلتها للتطبيق بنسبة ١٠٠ بالمائة او لا . فالصحة ينبغي اثباتها على محك الممارسة . يكفيانا ان نبحث بعنایة كبيرة عما يجري في الواقع ، عما يستأثر باهتمام الجماهير العريضة ، عما هو منبع للتناقضات بالنسبة الى الرجعية . ان نظرية من النظريات لا يمكن ان تكون جاهزة ، ناجزة ، بتمامها منذ بداية العمل ، بل هي لا تستطيع ان تتطور وتتطور من اخطائها الا في مجرى العمل والممارسة . وهذا ينطبق بالطبع على استعراضنا الاجمالي للعناصر العينية التي يتكون منها الوعي الظبقي وللعوامل التي تعيقه .

لدى الرجال الراشدين

ان العمل الجماعي في المصنع او في المنشأة هو بلا جدال اهم منبع للشعور الظبقي . لكن ان يكون المرء بروليتاريا وأن يعمل في مصنع او في منشأة ، وحتى ان يكون نقابيا ، فهذا لا يعني انه يمتلك الوعي الظبقي ، بالرغم من ان عمله في المصنع وانتماءه الى النقابة شرط ضروري لامتلاك الوعي الظبقي . وإليكم البرهان : في المانيا يقوم عمال كثيرون ممن كانوا ينت�ون في السابق الى النقابة الحرة بجمع مال لصالح «منظمة العمل القومية الاشتراكية»^(١) ، على نفس النحو الميكانيكي الذي كانوا يجمعون به المال للنقابة الحرة ، سواء افکروا في ذلك ام لم يفكروا . فحين

١ - هي النقابة النازية كما رأينا . -

يصير الانتهاء الى النقابة في دم الشفيل بالذات كما هي الحال بالنسبة الى الالماني ، فكثيرا ما يتأثر الوعي بطبيعة التنظيم . ان الدعاية القومية - الاشتراكية عن «إجلال العمل» وعن «تساوي رب العمل والعامل» وعن وحدة المنشأة ووحدة الامة ، تتيح امكانية تنويم الشفيل المتوسط بسهولة ، ولاسيما ذاك الذي كان قد تبني النظرية الاشتراكية - الديموقراطية عن الليبرالية الاقتصادية . فهو على درجة من الاستبعاد العقلي يشعر معها بالنشاط والانتعاش قد دب فيه بمجرد ان يلتقي بمن يؤكد له انه «عضو كامل الحقوق في الامة» ، ولاسيما حين يستلم زيا مهنيا موحدا . ان من يستهين بالقوة المادية للايديولوجيا يجاذب جادة الصواب . فقد اتضح انها اقوى ، في مرحلتنا التاريخية الراهنة ، من ضغط الحاجة المادية ؛ ولو لا ذلك لما كان هتلر وتيسن هما اللذين يتربعان الان على سدة السلطة ، وانما العمال والفلاحون بدلا منهما . ويعلم القوميون - الاشتراكيون حق العلم الثمن الذي ينبغي دفعه لاجتناب العامل . وقد قدروا تقديرًا صحيحا دقيقا أهمية الهدية الايديولوجية التي ينبغي تقديمها للشفيل حتى يمكن اضفاء صفة قانونية على حق من حقوق العمل على شاكلة القانون الصادر في كانون الثاني ١٩٣٤ . وهم على درجة كافية من الفطنة ليدركون انه لا يمكنهم ان يصدروا مثل هذا القانون من دون ان يقضوا على أنفسهم بالانتحار ، لو لا انهم اكتسبوا ، قبل ذلك ، تأييد الشفيل الايديولوجي العميق لرؤيتهم للعالم . لقد نظم لاي^(١) تهيئة ايديولوجية على مدى عدة شهور قبل اصدار قانون العمل . واذا ما اخذنا الذهول ازاء فظاظة القانون الفائقة ، هذا القانون

١ - الدكتور روبرت لاي : مدير «جبهة العمل» ، وكان من كبار الموظفين النازيين . - ٣ -

الذى يجرد العامل تمام التجريد ، متناسين اننا نراه باعين اخرى
واننا نحس به على غير النحو الذى يحسه به العامل المعد اعدادا
ايديولوجيا ، فلن نعبر الا عن افكارنا وتناقضاتنا **الذاتية** حين
ستوجه اليه بالخطاب ، اي لن نعبر عن افكاره وتناقضاته هو
نفسه . ومن الواجب ايضا ان يتقدم عملنا الثقافى عمل ايديولوجي
مدرس بروية وامعان ، مستند الى معرفة وثيقة بالتشویهات
الايديولوجية التي يعاني منها العامل . ان العامل يحس احساسا
عميقا بالعمل الذي هيء ومورس ضده ، لكنه يجد مباشرة في
متناوله افكارا ومشاعر تتيح له الا يعي كل خطورة موقفه الذي
لا سيطرة له عليه ولا سيادة ، وبذلك يقع ضحية للاوهم . ان
كيس البطاطا الذى قدمه هتلر هدية كان ذا هدف ايديولوجي
بنسبة ٩٩ بالمائة وذا هدف عملي بنسبة ١ بالمائة . وكذلك الحال
فيما يتعلق بتخفيض سعر المواصلات في المدن ، الخ . . . والعامل
الذى تمرس بصراع الطبقات لن يدع احدا يستغله ويخدعه بسهولة ،
يجد ان الكثرين الكثرين من الآخرين طأطوا الرأس ورددوا . ان
اقلية منهم هي وحدها المتمرسة ؛ اما الغالبية فلم تعلن قطر اضرابا
وذلك بفضل سياسة النقابة الحرة ؛ ولم يعد هناك اعداد كبيرة من
العامل «الخطيرين» في المصانع والمنشآت . وحتى لو شعر العامل
بما يترتب على ذلك القانون ، فإنه يجد نفسه بلا توجيه ولا قيادة ،
فترغمه الحاجة على ان يفلل نفسه بالاوهم ، فيتصور ان نيات
هتلر طيبة بالرغم من كل شيء ، وانه قد «فعل ايضا شيئا ما
لصالح العامل» . انه يتقبل الصدقه من دون ان يعي انه في الواقع
سيد الانتاج ، وانه ليس في الامكان اهداؤه اي شيء كان . واذا
ما تبلد ذهن العامل بالفكرة القائلة ان «كيسا من البطاطا خير من
الارتماء على قارعة الطريق بلا مأوى ولا عمل» ، فلن يخامره
الغضب من فكرة ان رب العمل ، وهو المواطن «المعادل» له ، يجني
من المنشآة دخلا يفوق دخله بالف مرة . واذا سألنا انفسنا كيف

تعيق صدقة كيس البطاطا تمرده الطبقي ، امكننا ان نلاحظ ان مسؤوليته العائلية هي ذات الشأن الاول ه هنا . انه من المستحيل اقتياده الى الشعور الطبقي بمجرد تحريضه على الاضراب ، كما يفعل المحدودو الافق من الناس الذين يجعلون حالته النفسية والذهنية ، او بمجرد تحريضه على الانتساب الى نقابات مذمومة ، سرية ، تواجه تهديدا خطيرا ، لا ثقة له بها . فالمفروض ايضا بالعامل الثوري ان يكون موجودا في «منظمة العمل القومية - الاشتراكية» وأن يظهر لزميله انه يفهم مشكلاته السرية وغير المفتر عنها ، وأن يبين له بوجه خاص انه يجمع في داخله تمرده ويعظر على نفسه التعبير عنه ، بسبب همومنه العائلية . ان ثمة مشكلات يكاد المرء لا يعيها ، لكنها مشكلات نمطية وتمس ملايين الشغيلة بلا تمييز . وكما ان المشكلة النمطية والغالبة بالنسبة الى الشغيل الشاب هي ، علامة على الاجر ، مسألة السكن والفتیات ، كذلك فانها بالنسبة الى الشغيل الراسد مسؤوليته العائلية التي لا تستطيع ان تخلط بينها وبين الارتباط العائلي البورجوازي . فحين يقال له : «قم بالاضراب» ، لا يفهم ما المرام ، او يكتفي بأن يدير ظهره . لكن اذا ما جرى افهامه (ونحن نتحدث هنا بخطوط مرئية) بأنه في حيرة من أمره ، يتراجع بين التراخي وبين تمرد غير معبر عنه ، وهذا على وجه التخصيص لانه لا يعرف هل هتلر خادم لارباب العمل او زعيم قومي نزيه تعمق قلبه الرغبة في الاهتمام بالجميع كما يوحى بذلك كيس البطاطا ؟ و اذا ما جرى افهامه بأنه يرخي العنان لنفسه ليقع بلا تحفظ تحت تأثير الخطابات والمهجانات ، تكون قد دللتا في هذه الحال على اننا فهمنا احساسه المباشرة ، ونكون قد اثبتنا ايضا اننا ثوريون حقيقيون لاننا نكون قد جندنا شغيلا جديدا ، ان لم يكن للاضراب حالا ، فعلى الاقل للغد بكل تأكيد ، وليس لهذا من شرط سوى ولادة بؤر مماثلة للتفهم البيسيكولوجي في الاحياء والمدن والاقاليم ،

وسى التراكم المكتف للشعور بوجود اشخاص يعرفون بدقة ما يفعم كل فرد وما يثير اشمئزازه وما يجعله يتعدد ويتذبذب ، وما يحفزه ويكتب جماحه في آن واحد . ولن تكون هناك من ضرورة لتوزيع منشورات سرية من هذا النوع وتحمل المشقات في سبيل ذلك ، لأنها سترخاطف تخاطفا . ولن يكون واجبا على محرريها أن يعملوا تحت وطأة الشعور بعدم الفلاح والنجاح كما هي حالهم حين يصررون على الكلام عن الخداع وسوء المعاملة ، بل سيخامر هم الشعور بالتماس المباشر مع العامل اللامبالي الذي يتوجهون إليه بالخطاب . وبذلك تكون قد استغفينا بالحقيقة عن الدعاية المليئة بالاوهام ، وبالسيطرة الفعلية على الموقف عن اللجة السياسية التي لا طائل تحتها ولا جدوى .

ان لمن الواقع الصغيرة ما هو أفصح وأبلغ دلالة من الاحداث العظيمة . اليكم واقعة عديمة الدلالة ظاهريا ، لكنها تبين ما أقصده حين اتكلم عن الشعور الطبقي وعما يعيقه ، وحين أؤكد ان الايديولوجيا الجنسية البورجوازية تمثل عامل الكف والكبت الاكثر توائرا . وفي سكة حديدية محلية في النمسا ، طفق بعض العمال والفلاحين يتحدثون عن السياسة والحياة الخاصة وقصص النساء . وقال عامل شاب ، متزوج على ما يبدو ، ان القوانين رديئة الصياغة حقا . وأضاف بأنها مسنونة للاغنياء ، ولا نفع منها للفقراء . وقد اعرب هذا العامل المحبو بالوعي الطبقي سمعي لاتبين ما يريد ان يقوله . وتتابع يقول : «على سبيل المثال ، قانون الزواج . فالقانون يقول ان الزوج يستطيع ان يضرب امراته . لكن الاغنياء هم وحدهم الذين يستطيعون ذلك . فلو ضرب فقير زوجته لما نجا من العقاب» . وليس من المهم ان يكون ذلك صحيحا او غير صحيح ، ولكنه فصيح الدلالة على كل حال بالنسبة الى ذهنية العامل المتوسط . فهو يحدد موقعه ومكانه نسبة الى الفني ، ويحس باللامساواة . ومن هذا المنظور ، يتبنى بالفعل وجهة نظر

طبقية ولكن ليس احلى على قلبه من ضرب زوجته ، كما يبيع له القانون ذلك . ومن هذا المنظور ، يشعر انه مهضوم الحقوق ، وذلك بصفته عضوا في طبقته . ان الاخلاق الجنسية البورجوازية تتعالى مع الوعي الظبيقي لدى العامل عينه . وأدھى العقبات التي تعيق تكون الوعي الظبيقي لدى جميع اعضاء الاسرة ينبغي ان تعزى الى حق الملكية الجنسي الذي تهبها الدولة الظبيقية للرجل ، والى سلطته على المرأة وعلى الاطفال . ووظيفة هذه العقبات والعوائق تطويع جميع اعضاء الاسرة ، وربط الانسان بالنظام البورجوازي ، وحمله على ان يرفض عن وعي او غير وعي كل عمل سياسي ، الخ ولیست هذه المسألة بذات طبيعة اخلاقية ، وإنما سياسية ، ولا تمكن معالجتها الا بصفتها مسألة سياسية . بل ينبغي ان تحتل مكانة الصدارة في الدعاية الثورية ، لا ان تبقى في المؤخرة كما هي الحال حتى اليوم . ولعلنا نطرق بذلك مضمار الحياة الخاصة الذي له من الاممية ومن التأثير السياسي اكثر مما لاي مضمار آخر . ومن الممكن مقارنة فاعليته الرجعية في البروليتاريا بفاعلية مخيمات العطل وحركة الحدائق العمالية من حيث انهما اشكال للسياسة العائلية لدى البورجوازية الصغيرة . ومن العوامل الاخرى النافذة للوعي الظبيقي ، الكافة له ، الروابط الذكرية وحياة الخمارة والملكية الصغيرة ، ولاسيما في اوساط البورجوازية الصغيرة . فقد كان صغار المالكين على علم بان الثورة لن تمس الملكية الصغيرة دفعة واحدة . ثم ان الوصوصية ، وتقمص شخصية المنشأة ، والكبرياء التي تخامر العامل اذ يرى المنشأة الرأسمالية تزدهر ، وشاغل الامان الاقتصادي لدى الموظف والمتقاعد الم قبل ، تفعل فعلها على الدوام ضد تكون الوعي الظبيقي ، اذا لم يأخذ الحزب الثوري موقفا ايجابيا وفي منتهى الوضوح ازاء هذه المسائل كافة ، واذا لم يجد اجوبة عينية ، تصح بالنسبة الى جميع الفئات الاجتماعية ، للاسئلة التالية : إلام

سيُوقِّل بعد الثورة بيتي الصغير ، حديقتي العماليّة ، ترددت على الخمار ، على نادي البولينغ ، سلطتي على زوجتي وأولادي ، حتى في التقاعد الذي أنا عظيم الفخر به ؟ إن هذا التعداد العيني يظهر لنا الخطأ الفادح الذي نرتكبه إذا حدثنا سلفا دور السياسة الجنسيّة ومكانتها . فهي ليست السياسة الوحيدة التي يمكن أن نعارض بها الرجعية ، على نحو ما يدفع أنصار السياسة الجنسيّة دفعا إلى أن يدعوه ، كما أنها ليست مشكلة صغيرة من مشكلات المذهب السياسي في المضمار الجنسي ، وإنما تتوزع بالآخر إلى مشكلات حيّاتية عينية تؤلّف هنا عاملاً موائماً للوعي الظبيقي ، كما هي الحال لدى الشباب ، وتؤلّف هناك عقبة تعيق تكوينه ، كما هي الحال لدى المرأة المتزوجة ، الخ ... إن السياسة الجنسيّة ينبغي ، بالحتم والضرورة ، أن تؤلّف جزءاً من العمل الثوري ، له صلة وثيقة بالمشكلات غير الجنسيّة ، كالمشكلات الاقتصادية أو التقنية الخالصة ، وغير منفصل عنها إلا بقدر ما تفصله الحياة عنها .

لدى الطفل

كيف تتجلى العوامل الموائمة وغير الموائمة للوعي الثوري لدى الطفل ؟

لقد كانت سياسة الطفولة على الدوام واحدة من نقاط الضعف في المعسكر الثوري (١) . ونحن لا نؤمن بالبتة ، كما يتهمنا

١ - قبل رايش بسنوات قليلة ، فصل عالم التربية الشيوعي أوتو روهل من الحزب الشيوعي الألماني . «م»

بعضهم ، بأننا نعرف كل شيء ونستطيع ان نجد حلًا لجميع المسائل دفعة واحدة . كل ما فعلناه هو اننا لفتنا الانتباه الى بعض الواقع التي ينبغي متابعته تحليلها ، ومطلبنا الوحيد من رفاقنا في النضال الا يوجهوا انتقاداتهم بصورة ميكانيكية ، والا يكتفوا بالكلام عن الليينينية ، بل ان يفسروها على وجهها الصحيح من خلال «تعلم المزيد فالمزيد دوما» ، وأن يمحصوا كل شيء من جديد ، وأن يفهموا كل شيء من جديد . لقد سبق لي ان قلت ان السياسة البروليتاريا في مضمار الطفولة مجردة اكثـر مما ينبغي ، غير متكيفة مع الاطفال ، وانها تجهل بوجه خاص - باستثناء بعض المربين المشهود لهم بالحصافة - الافكار والمشاعر التي تراود الطفل ، ولا يسعنا هنا الا ان نكتفي بتقديم بعض التوجيهات ، من دون ان ندخل في التفاصيل ، محليـن التحقق المادي من صحتها الى الهيئـات والاجهزـة المعنية .

صحيح ان الجوع ، اي نقص التغذية الفعلـي ، لدى الطفل تجربة قمينـة بـأن تـحفـر في ذـاكرـته الـهـوـةـ التي تـفصـلهـ عن «الطفل الغـنـي» ، ولكن ليس في ذلك بـحد ذاتـهـ شيءـ منـ الثـورـيـةـ . فالـجـوـعـ لا يـضرـمـ فـتـيلـ الحـقـدـ عـلـىـ الـمـالـكـينـ بـقـدرـ ماـ يـحرـكـ مشـاعـرـ الفـرـقةـ والـهـوـانـ وـحـافـرـ السـرـقةـ ، كـماـ نـلـاحـظـ عـلـىـ سـبـيلـ المـثالـ بـيـنـ عـصـابـاتـ الـأـوـلـادـ الـمـشـرـدـينـ . وـاـذـاـ اـرـدـنـاـ انـ نـقـيمـ سـيـاسـةـ الطـفـولـةـ عـلـىـ اـسـاسـ الـجـوـعـ الفـعـلـيـ ، فـلـنـ تـكـونـ القـاـعـدـةـ التيـ سـتـتـوـفـرـ لـنـاـ الاـ فـيـ مـنـتـهـىـ الـهـشـاشـةـ ، لـاـنـهـ سـيـكـوـنـ مـنـ الـوـاجـبـ عـلـىـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـ انـ نـصـلـ الـىـ كـلـ جـمـهـرـ الـاطـفـالـ الـذـيـنـ يـرـزـحـونـ فـعـلاـ تـحـتـ نـيرـ الـجـوـعـ . اـضـفـ الـىـ ذـلـكـ انـ الـفـاقـةـ لـيـسـ مـطـلـقـةـ ، لـكـنـهاـ نـسـبـةـ عـلـىـ الدـوـامـ نـسـبـةـ الـىـ مـنـ يـمـلـكـ اـكـثـرـ . يـنـبـغـيـ اـذـنـ انـ نـوليـ اـهـتـمـاماـ لـلـفـرـقةـ وـالـتـقـشـفـ النـاجـمـينـ عـنـ الـحـرـمانـ الـمـتـوـاـصـلـ ، لـاـنـهـماـ يـؤـلـفـانـ عـائـقاـ اـمامـ الشـعـورـ الثـورـيـ . وـتـدـلـ الـمـلـاحـظـةـ عـلـىـ اـنـ الدـافـعـ الغـرـيـزيـ الـاـقـويـ الـذـيـ يـحـفـزـ الـاطـفـالـ نـحـوـ الـقـنـاعـاتـ الثـورـيـةـ هوـ التـشـبـهـ بـالـاخـوةـ

والاخوات الاكبر سنا او بالوالدين المحبوبين بوعي طبقي . لكن ذلك نادر . صحيح ان طفلاث ثوريا ، ترعرع على الالحاد ، يمكن ان يحرض مدرسة بكاملها وان يقلب سافالها عاليها ، لكن ستبقى مثل هذه الامكانية عارضة اذا لم يجر تنظيمها . ان الكتابات برسم الاطفال التي وزعها في المانيا اطفال كذلك ، لم تخلف اثرا يذكر ، لانها كانت تهدف الى ان تغرس في عقولهم شعارات عقيمة غير مشوقة ، بدلا من ان تثير اهتمام الطفل بالمشكلات والقضايا الحقيقية للحركة البروليتارية . وينبغي هنا ان اؤكد ، بالرغم من جميع ضروب الاعتراضات التي لا تقوم على اساس متين ولا تستند الى اي تجربة ، والتي تصدر عن محركي جماعات الاطفال ومدراء منظمات الطفولة ، ينبغي ان اؤكد ان ردود فعل الاطفال تجاه المسائل السياسية تكون في منتهى السهولة والحيوية والحدة اذا جعلنا الطريق الى هذه المسائل القضايا الجنسية واذا اخذنا منهم موقفا رفاقيا بنوع ما . والختار على كل حال معدوم نظرا الى ان احساس الطفل بالقمع الجنسي مباشر ، في حين ان عقله شبه عاجز من الوهلة الاولى عن استيعاب المسائل الطبقية . واذا احيط الطفل بإعلام جنسي مبكر وصادق ، فلن تكون نتيجة ذلك تعلق الطفل بمن يوفر له مثل ذلك الاعلام فحسب ، ولن تكون نتيجته تبديد ريبته تجاه الرشد فحسب - وهي ريبة حاضرة دوما وان في ظروف مختلفة - بل ايضا توفير امن ركيزة ممكنة لنمط التفكير الملحد ، وبالتالي للشعور الطبقي . ولا يعود سبب الصعوبة هنا الى الاطفال بقدر ما يعود الى الراشدين الذين يفترض فيهم ان يؤدوا هذه المهمة . ويسهل ، انطلاقا من هذه الركيزة ، ا يصل الطفل الى مشاعر وأحساس ومهارات معادية للكنيسة وللرأسمال . وبالقابل ، فان ذلك متعدد او بالغ الصعوبة بدون تلك الركيزة . لكن انجاز هذا الجانب الايجابي من المهمة يستوجب معرفة عميقة بضروب الكف والكبت الخطيرة التي يعاني منها الطفل والتي تقوده

فيما بعد الى ارتباطات وتعلقات رجعية . لنج الى منزل قروي ، في الجبل ، لدى الاهل فيه قناعات اشتراكية . فالطفل لا يبني يسمع باستمرار اذا ما قرع الباب غريب : «قل صباح الخير بلطف» او «ماذا يجب ان تقول ؟» ، وعندئذ ينكمف الطفل على نفسه هصرا وقلقا ، ويصبح «حسن التهذيب» . وان واحدة من اهم مهام الجبهة البروليتارية لهي النضال الايديولوجي ضد «حسن التهذيب» هذا . بيد ان ما يجعل هذه المهمة بالغة الصعوبة هو التكوين الايديولوجي للمربي البروليتاري نفسه . فالحكايا وقصص الاشباح والتهديفات ((سأستدعي للحال رجل الشرطة)) التي يلجا اليها المربي عادة تؤلف جزءا من اقوى المؤثرات الرجعية الموضوعية تحت متناول الرجعية السياسية . فكل اب بروليتاري ، باستثناء القلة القليلة ، يثار لنفسه عن طريق طفله في البيت من عبوديته في المنشأ او المصنع . فهو في بيته على الاقل السيد ، وفي وسعه ان يصدر الاوامر وان يجد من يأمره . واذا لم يكن الكلب ، فليكن الطفل . ولا حاجة هناك لاقامة الدليل على ان ضرب الطفل مظهر من مظاهر هذه الذهنية . لكن معرفة ذلك لا تجدي فتيلا اذا صاحبها الاستنكاف وعدم الاكتتراث . والمطلوب في هذا المجال تنظيم دعاية مضادة واسعة جدا ، على الصعيد العالمي . وهذا امر ممكн تماما في ظل الرأسمالية . فكل ام تضرب طفلها في الطريق يجب تقييعها علينا . وسوف يقود تنظيم اجراء من هذا القبيل الرأي العام بسرعة الى المشاركة في النضال في سبيل اعادة دمج الطفل بالمجتمع بدليلا عن وضعه كعبد للأسرة . وسوف نصادف عندئذ اناسا يزعمون ان الطفل «ملکهم» وأنه من المباح لهم ان يضربوه ، واناسا يذهبون عكس هذا المذهب وهم في معظمهم افراد لم يسمعوا قط بالشيوعية . ومن السهل ان ينخرط هؤلاء الناس للحال في صراع الطبقات ، اي ان يشاركون في واحد من قطاعاته ، على نحو افضل وانفع وأجدى بآلف مرة من تلقينهم

منشورات «مطالية» تدس تحت الابواب وتذهب الى سلة المهملات .
ومن المؤكد اننا لا نستطيع هنا ان نشرح كل شيء بالتفصيل وأن
نعطي تعليمات محددة دقيقة . ولا يفترض باشتراكيي البلدان
الرأسمالية ان ينتظروا اصلا تعليمات ، وانما عليهم ان يحددوا
مواقفهم استنادا الى قناعتهم الداخلية بما يبدو لهم عادلا ونافعا،
وضد ما يبدو لهم مجحفا وضارا . وبدلأ من ان نردد ونكرر بأن
يد المبادهة يجب ان تكون مطلقة للمنظمات القاعدية ، ينبغي
بالآخرى ان نحدد ميادين الحياة الاجتماعية التي يمكن فيها
للمبادهة ان تنمو وتتطور . ومن الضروري ، بغية تحقيق ذلك ،
ان نبدل جميع اساليبنا في الدعاية، وأن نستبدل الدعاية الورقية
بدعاية حية ، والخوف من ارتکاب الاخطاء - وهو خوف يشل
النشاط - بشجاعة ارتکاب الاخطاء ومن ثم تصحيحها . ولترجع
الآن الى الطفل . لقد اظهرت الابحاث التي اجريت في مضمار
الاقتصاد الجنسي ان التعلم المبكر والمترزم للنظافة يسبب عوارض
خطيرة من الكف والكبت للطبع والمزاج . وقد لا يكون العمل في
الجبهة الثقافية وتحطيم سياسة لطفولة سوى المعالجة المسهبة
والعينية وال موضوعية لمسألة التبشير في تعلم النظافة على سبيل
المثال . وهذا طريق للوصول الى السياسة اقصر بكثير مما يمكن
تأمله ، لأن الرجعي ، الذي يحمي عن حسن التربية والتهدیب
والانضباط ، لن يتاخر في الاصفاح عن معارضته . لكن هذا
بالتحديد ما نريده : ان نفتح باب مناقشات يشارك فيها السكان
و تستائر باهتمامهم ، لأنها مناقشات تتناول المشكلات الشائكة
للحياة اليومية . وانها لمهمة المحل الاشتراكي ان يبذل المساعدة
للمنظمات في هذا المجال ، وأن يوجه المناقشات ويسدد خطتها ،
الآن .

هاكم مثلا عينا آخر : ان تحظى الاستمناء لدى الاولاد وما
يستتبعه من تهدید من جانب الاهل والمعلمين والخوازنة هو

موضوع مناقشات حادة منذ زمن طويل في اوساط الرأي العام . وقد عجز الشيوعيون عن المساهمة بشيء في هذا المضمار ، اولاً لأنهم مشربون هم انفسهم بالآراء المسبقة البورجوازية ، وثانياً لأنهم يرفضون ما يطلقون عليه اسم «الفرويدية» ، وهذا شيء خارج عن الموضوع أصلاً لأن فرويد نفسه لم يكن له موقف محدد تجاه هذه المسألة . ومع ذلك فإن هذه المسألة بعينها ، أكثر من أي مسألة أخرى ، هي التي تمثل المشكلة المركزية في تربية موجهة إما نحو الطاعة والانقياد وإما نحو الحيوية الصحبية لدى الطفل . وهذه في الواقع مشكلات طبقية ، لا شؤون «فردية» . والكنيسة تعلم ذلك حق العلم ما دامت تضرب نطاقاً من التحرير حول بعض المواضيع . فاستمناء الأولاد في نظرها ضرب من السياسة ! ونحن لا يخالجنا الظن هنئية واحدة بأننا واجدون حلاً لهذه المسائل فوراً ، لكن في مقدورنا أن نوضحها ، وأن نعرضها في مختلف جوانبها ، وأن نشير المناقشات ، وأن نثبت الحركة والحياة في عملنا . أما أولئك الذين قد يعترضون هنا بأنه لا ينبغي التطرق إلى المسائل الخطرة حتى لا تستغل في اثاره السخط والنفور وتأليب الناس علينا ، فإننا نرد عليهم بقولنا انه يكفي ان تمهد القضية الى أولئك الذين يملكون المؤهلات الفضورية لمعالجتها . وحسبهم أن يتمتعوا عن مضائقه هؤلاء الآخرين والا يؤلفلوا والكنيسة جوقة واحدة . إن الذين يعرفون صراعات الطفل مؤهلون اكثر من اي انسان آخر ليعرفوا مدى وعورة هذه المسائل ودقتها وخطورتها ، لكن في الوقت نفسه مدى أهميتها وإلحاحها . فهي الشغل الشاغل لكل أم ، اي يكين العسكري الذي تنتمي اليه ، وكل طفل بلا استثناء . ونستطيع ان نقول الشيء عينه عن جميع المسائل المرتبطة بسياسة الطفولة ، هذه السياسة التي ليست ولا يمكن ان تكون بالنسبةلينا سوى علم التربية التطبيقي ، وإن اقتصر حتى الان على مناقشة السياسية والنشاط الايديولوجي . وإنني لأنوه بأنني

واع تماما بالمقاومة التي سيثيرها التطرق الى هذه المسائل ، لكن من المؤكد بالقدر نفسه اننا سنعالج بذلك مشكلات حياتنا الاساسية وستتجنب وبالتالي السقوط في الشيغوخة السياسية . نحن لم نذكر هنا سوى بعض الامثلة النموذجية . واذا ما رد الان «اختصاصي» من الاختصاصيين بأن مسائل تربية الاولاد ما تزال موضوع مناقشات ومناظرات علمية ، فسيكون جوابنا عليه : صحيح انها متنازع عليها ، لكن لا سبيل الى تسوية المسالة وحلها ضمن جدران المكتبة ، وانما فقط في معرك النساء الحي في سبيل القضية نفسها .

انني اجهل ما اذا كان المثال التالي يمكن ان تترتب عليه نتائج عملية مباشرة وفورية ، لكنه يحفر بالتأكيد على ايلاء المزيد من الاهتمام للاشياء التافهة ، وحتى الشديدة التفاهة ، وعلى البحث عما هو هام في ما هو عادي وعلى معالجته ، وعلى تعلم كيفية تمييز الواقع النمطي من الواقع الفردية اللاننمطية . ان هتلر يجد اليوم حتى الاولاد ، بفضل الالعاب والقصص الحربية بوجه خاص . لا مجال للشك اذن في انه من واجبنا ان نفهم لماذا تكفل له هذه الوسيلة النجاح ، وماذا يستجيب لها لدى الطفل . وليس المطلوب مجرد القيام بابحاث في العمق ، بل المطلوب قبل كل شيء فهم ردود فعل الطفل . وفي احدى الابحاث كان الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين السادسة والعشرة يلعبون لعبة الجنود ، لعبة الحرب ، وما الى ذلك من الالعاب المماثلة . رأيت غلاما يركض هنا وهناك ، على جنبه سيف ، وفي يده بندقية خشبية ، ويسدد باتجاه رفقاءه . سألته اذا كان يريد ان يقتل رفقاءه . فجمد في مكانه للحال ، وبدت عليه علام الدهشة ، وسأل : «ان اقتل ؟؟» ، فأجبت : «بالطبع ، حين تسدد عليه ، تقتله» . فاجاب : «لكني لا أرغب البتة في ان اقتل» . فقلت : «لماذا تركض اذن ومعك بندقية وسيف ؟» ، فأجاب : «السيف جميل وطويل» .

لست أريد هنا ان ادخل في مناقشة المشكلة المعقّدة المتعلقة بالروح المسالمة وبالتمييز بين الحرب وال الحرب الاهلية ، لكن ثمة تجارب اخرى قد علمتني ان الاطفال ، بالرغم من بعض نيات القتل اللاشعورية ، لا يستمدون اللذة التي يجدونها في الالعاب العربية من شهوة القتل ، وانما من القوة المحرّكة التي تعبّر عن نفسها في اللعب ، ومن تعاظم الاحساس بالذات عن طريق السلاح الذي في اليد ، ومن الایقاع الخاص بالأشياء العسكرية . ألا ينبغي ان نأخذ مثل هذه الاعتبارات بالحسبان حين نرسم سياسة بروليتارية للطفولة ؟ بهذه طوباوية ؟ لست ادري . بيد ان الواقع المشار اليها وقائم من الحياة الطفولية ، واذا كنا لم نمسك بزمام الاطفال فهذا بلا جدال لأننا لم نبذل جهدا لرؤيتهم في تعقيدهم وتوجيههم والاستفادة مما يمكن توجيهه والاستفادة منه . ان هذه كلها مسائل صعبة ، بل بالغة الصعوبة ، تتطلب جوابا فوريا . واذا لم تعالجها ، فلن نجد لها البتة جوابا عمليا .

-٣-

السياسة البورجوازية والسياسة البروليتارية

ينبغي على حركة السياسة الجنسية ان تناضل على عدة جبهات ؛ واحدى هذه الجبهات هي تشابك الافكار المهمة التي تبدو وكأنها مجرد من المعنى ما ان يطرح المرء على نفسه أبسط الاسئلة بصدقها. واحد هذه الاسئلة هو التالي: «ما السياسة؟». وهو يخطر للذهن حين يعترض مفترض عند تعداد مبادىء علم النفس الجماعي المستنبطة من الاقتصاد الجنسي متذرعا بحجة لا تتبدل ولا تتغير : «قد يكون هذا كله صحيحا بل مفيدا ، لكن المهم قبل اي شيء آخر **السياسة والعوامل الاقتصادية**». وفي وسعنا في هذه الحال ان نلاحظ كيف ان المستمعين الوديعين الموجودين في الاجتماع او في قاعة المحاضرة ، ومن كانوا يتبعون اطروحتات علم النفس الجماعي باهتمام كبير ويعربون بين الفينة

والفيئة عن موافقتهم ، اقول : في وسعنا ان نلاحظ كيف انهم يدعون الشكوك تنتابهم ، فتتلاشى ثقتهم بالاحكام التي كانوا قد كونوها بينهم وبين انفسهم ويرخون العنان لانفسهم في وقوف موقف احترام وتبجيل خائف وجل تجاه كلمة «السياسة» ، وهو بالحق موقف يبعث على الاستغراب الشديد . وكثيرا ما يحدث في هذه الحال ان يضطر الناطق بلسان وجهة نظر علم النفس الجماعي الى التراجع والتقهقر قليلا امام كلمة «السياسة» ، بالرغم من بساطة وجهة النظر تلك وبداهتها ، فيسلم بأنه كان من الواجب ان «تدرس اولا» علاقات السياسة بعلم النفس الجماعي . لكن الناطقين بلسان السياسة العظمى و«العوامل الاقتصادية» ، الميللين على الدوام الى الافتراض بأن هذه العوامل مهملة وغير ماخوذة بعين الاعتبار ، مع ان الصحف والمجلات لا تتحدث في الواقع عن شيء آخر ، ناهيك عن انها لا تتحدث ابدا عن العوامل المتعلقة بعلم النفس الجماعي ، يجدون انفسهم بدورهم عادة عاجزين عن تقديم جواب عيني حين يسألهم احدهم ما المقصود بدقة بـ «السياسة» ، وهي الكلمة التي لها تأثير يكاد يكون وثنيا على عامة البشر . والحال انه ينبغي ان نعتاد على اخضاع كل موضوع غدا وثنا وصنعا لنور باهر ، نور الاسئلة الساذجة التي هي ، كما نعلم ، أصعب الاسئلة وانجعها وأعمقها .

صنمية ((السياسة))

يعتقد الفرد اللامتنيس ان «السياسة» هي قبل كل شيء محادثات بين ممثلي الدول الكبيرة والصغرى يتم في اثنائهما تقرير مصير البشرية . وهو يقول عن حق انه لا يفقه فيها شيئا . وقد يرى فيها ذلك النشاط الهداف الى عقد تحالفات برمانية

بين الاصدقاء والخصوم ، وكذلك الانهماك في الخداع والغش والتجسس والاستئثار بالامتيازات المادية واتخاذ القرارات بالاشكال «القانونية» . وهو لا يفقه فيها شيئاً هذه المرة ايضاً ، وكثيراً ما تشير اشمتزاره ونفوره ويجد لنفسه مخرجاً بقوله «انه لا يريد ان يكون له دخل بالسياسة» . والحقيقة انه لا يتبيّن ان في الامر تناقضاً ، لأن مصيره انما يتقرّر في تلك التجارة اللامشروعة على وجه التحديد ، ومع ذلك يدع أولئك الذين يعدهم نصابين يقررون مصيره بالنيابة عنه .

ويمكن ان تعني السياسة اخيراً رغبة المرء في اكتساب تأييد جمهرة السكان لقضيته .

وغمي عن البيان ان السياسة البورجوازية لا يمكن الا ان تكون ديماغوجية بالنسبة الى من تربى تربية ماركسيّة ، وذلك لأن كل ما تستطيعه هو ان تقطع الوعود للجماهير ، من دون ان تفي بها ابداً . والامر على عكس ذلك تماماً بالنسبة الى السياسة الثورية ، لأنها تستطيع ان تقدم للجماهير ما تعودها به ، وبصورة غير ديماغوجية من حيث المبدأ . أما حين تكون ديماغوجية فلا يدخلنا ريب في ضرورة الاستنتاج بأنها قد تخلت عن المبادئ الثورية . سوف نضرب مثلاً على ذلك النمط من التفسير السياسي الذي ترى فيه جمهرة الشعب انه هو «السياسة العظمى» ، هذه السياسة التي لا يفهمها الشعب ، وينظر اليها باحترام ووجل ، ولا يغيرها اهتمامه الا بصورة سلبية ، هذا ان لم يقف منها موقف اللامكري .

«... اذا كان المرء يفضل ، شأن انكلترا ، اضفاء صفة شرعية على التسلح بدلاً عن سباق التسلح ، فلا بد من ان يسلم في هذه الحال بأن هذا التشريع يجب ان يتراافق بتوكييدات ضد انتهاكات جديدة للمعاهدات . وعلى اساس هذه التوكييدات يجب ان يتولى مؤتمر جنيف لنزع السلاح البحث في ضمانات لتنفيذ

اي اتفاقية لنزع السلاح . بيد ان المانيا لا تقبل بالشرط الذي وضعته فرنسا . وهي تلتزم الصمت حول هذه النقطة فسياتصالاتها الرسمية ، وقد رفضت ، في محادثاتها مع لورد الاختام البريطاني الخاص ايدن في برلين ، الحضور الى جنيف . وهكذا اضحت المفاوضات الفرنسية - البريطانية ، كما يقال ، غير ذات موضوع . وقد انتهى التبادل الدبلوماسي لوجهات النظر خارج نطاق مؤتمر نزع السلاح من دون ان يتمخض عن نتيجة . ولقد بات مؤتمر نزع السلاح هو الملزם من الان فصاعداً بان يقدم ، بدون المانيا ، ضمانات السلام الواجبة . وتعتمد فرنسا من هذه الزاوية على التعاون مع بريطانيا العظمى .

«هذا هو معنى ومضمون المذكرة الفرنسية الطويلة المؤرخة في ١٧ نيسان ردا على المذكرة البريطانية المؤرخة في ٢٨ آذار وعلى حاشية السير جون سيمونز المؤرخة في ١٠ نيسان» .
لقد ضربت هذا المثال من دون ان اشير الى المصدر ، وهذا عن عمد حتى لا اجرح احدا . والمقصودون هنا يتعرفون انفسهم بأنفسهم . والحق انه ليس بين ايديتنا وسيلة اخرى لتحاشي قابلية الساسة الشديدة للتأثير والانحراف .

من هي «المانيا» ومن هي «فرنسا» ؟ وماذا يعني «التبادل الدبلوماسي لوجهات النظر» ؟ وهذا هو حقاً معنى المذكرة الفرنسية ومضمونها ؟ ما علاقة هذه «المذكرة السياسية» ب حاجات الجماهير وأفكارها ومشاعرها وحياتها وبقائها ؟ ليس من علاقة البتة . ولنقارن ذلك بسياسة لينين عند توقيع معاهدة برست - ليتوسك . فقد كان كل فلاح يتضور جوعاً يفهم شعار «لتسقط الحرب» ، بينما كان دعاء السياسة العليا يعارضونه .
ان الجماهير الواسعة ، التي يفترض بالسياسة الثورية ان تنبثق منها اذا كانت تريد ان تضمن مستقبل هذه الجماهير ، تفك

وتتكلم بطريقة معايرة . وكل من يتكلم اليوم عن اسفار بارتو (١) من دون ان يفسر على نحو واضح وبسيط ومفهوم اين يمكن وجہ الخداع والمخاتلة في هذه الاسفار، يكون هو نفسه قد مد يد العون للمخادعين والمخاتلين وان عن غير قصد منه .

لو أمعنا النظر في كيفية احساس الجماهير الواسعة بالسياسة العظمى ، للاحظنا ان الجماهير تقلد في احسن الاحوال هذه السياسة وتحاكيها في شكل سياسة الخمارات . فهي تنفعل بها سلبا ، وبخضوع وإذعان ولا مبالاة ، وتمثل على الدوام دور الممثلين الصامتين الذين لا دور لهم يؤدونه في مسرحية «السياسة العظمى» . لكن علينا ان نفهم ان المهزلة المسماة بـ «السياسة العليا» ستنتهي نهاية فظة، وبصورة غير سارة بالنسبة الى الدبلوماسيين، اذا ما عزفت الجماهير عن اداء الادوار الصامدة لتتخذ موقفا فعالا، وبكلمة واحدة ، اذا تحررت من لاتسيسها . اما ذاك الذي لا يضع نصب عينيه على الدوام السؤال الاساسي التالي من مسائل السياسة الثورية : «ماذا يحدث في الجماهير؟» ، ولا يجيب عليه باستمرار ، فمقضي عليه بأن يضيع في متاهة السياسة البورجوازية ، ولا يستطيع الا ان يختار بين مذهب اللاتسيسي او التعاون مع تلك السياسة . ولا تسييسية الجماهير الواسعة هي واحدة من قوى الرجعية . ومن قواها الاخرى كذلك الهالة التي تحيط بها سياستها ، بحيث تأخذ الاشتراكيين انفسهم الرغبة في المشاركة فيها .

ان واحدة من اهم مهام السياسة الثورية ان نرى بوضوح ، وأن نتحقق ، وأن نفهم كيف تحس الجماهير بسياسة الكواليس .

١ - وزير الخارجية الفرنسية . وقد سافر في عام ١٩٢٤ الى بраг ووارسو وبغراد ليناقش فيها مشروع «حلف شرقى» .

فحين أعرب هتلر للمرة الاولى في صيف ١٩٣٢ لهندنبرغ^(١) عن تطلعه الى رئاسة مستشارية الرايخ ، فلم يلاق لديه سوى الرفض ، بعد ان لعبت وراء الكواليس واحدة من تلك المكائد المقرر لها ان تبقى ابدا خفية عن الجماهير ، توجه بالخطاب الى انصاره متذرعا ببالغ الحماسة بـ «مشيئة الشعب» . وقضية بوتمبا هي التي اتاحت له الفرصة .

كان قد صدر حكم بالاعدام على اعضاء من «ف. ه» كانوا قد اغتالوا بوحشية احد العمال البولونيين . وانبرى هتلر يدافع عنهم علينا . وكانت خلفية بادرة هتلر هذه الرفض الذي قابله به هندنبرغ بعد مطالبته له بمستشارية الرايخ . وأطلق هتلر العنان لقاعدته الجماهيرية ، بعد ان اخفقت صلاته الاقطاعية .

ولم يدخل الجماهير قط الشك في اللعبة التي كانت تشارك فيها . بل احست ، على العكس ، ان هتلر «يفهمها» من خلال تطلعاتها القومية . ولقد كان للدعم الذي محضه هتلر لرجال صرعوا «كلبا ماركسيا» بداعي «الشرف القومي» ، ولعارضته الحكومة البغيضة التي حكمت بالموت على القتلة ، مفعول فاق بما لا يقاس مفعول الدعاية الشيوعية المعاكسة ، الخاطئة ، التي كانت تكتفي بتسمية الجريمة جريمة ، معتقدة بأن ذلك هو جوهر «سياسة تبديد الا ضاليل» التي كانت تنادي بها وتطريها وتعظمها . ولو كان الشيوعيون قاموا بالتحريض عن طريق امامطة اللثام عن الصلة بين رفض هندنبرغ وإثارة هتلر لشاعر الجماهير ، لكان لذلك بعض المفعول والتأثير . لكن الحزب الشيوعي الالماني كان يقول على الدوام بـ «تعادل» جميع الميلول والاتجاهات الرجعية ،

١ - ماريشال المانى صار رئيسا للرايخ عام ١٩٢٥ وجعل من هتلر مستشارا في عام ١٩٣٣ . - ٣ -

حارما نفسه وبالتالي من فهم تناقضات البورجوازية ، ناهيك عن انه لم يتعلم كيف يميز ردود فعل الجماهير التي تسير معه عن ردود فعل الجماهير التي تسير مع خصمه . وباكتفائه بتسمية الجريمة، وضع نفسه بصورة آلية ، في نظر الجماهير المؤيدة للنازيين والجماهير التي تخصه ببعض التعاطف ، في جانب الحكومة التي كانت هذه الجماهير تبغضها .

لماذا لم يتوجه ليتفينوف الى الجماهير ؟

اما ان تعبّر السياسة الثورية ، بمضمونها ولفتها ، عن الوجود البسيط ، الخشن ، القريب من الحياة ، للجماهير الواسعة ، واما ان تكتفي بتسمية نفسها ثورية وبيقائها في الواقع رجعية وغير فعالة . وحتى لو قالت اشياء صحيحة ، للبشت غير مفهومة من قبل الجماهير ، ولسلكت مسلكا مضادا للثورة من وجهة النظر الموضوعية .

ان العالم على عتبة حرب جديدة ضروس فتاكه . وقد ذهب بارتو وليتفينوف^(١) الى جنيف كممثلين دول وكمدافعين عن السلم ضد المانيا . والنقد الوحيد الصحيح الذي وجّه حتى الان الى موقف ليتفينوف ، من وجهة نظر الثورة العالمية ، انما وجهته المجلة الناطقة باسم تروتسكي ، «كلمنتنا» ، في الاسبوع الثاني من حزيران ١٩٣٤ . وبال مقابل ، تبدو جميع منظمات البروليتاريـا الاخرى وكأنها لم تفهم بتاتا ما حدث في جنيف . ومع ذلك ، لم يتوصّل هذا النقد نفسه الى صياغة المشكلة الاساسية من وجهة

١ - مفهـوس الشعب للشـؤون الخارجـية في الـاتحاد السـوفيـاتـي يومـئـدـه .

النظر البسيكولوجية : «كيف هو احساس العامل المستخدم والفالح غير الميسين في المانيا وفرنسا وإنكلترا ، وحتى في الاتحاد السوفيaticي ، بقدوم رجلي الدولة هذين ؟ هل خالجهم الشعور بأن ليتفينوف يمثل دولة بروليتارية ؟ هل رأوا من فارق بين رغبة بارتون في السلام وبين رغبة ليتفينوف ؟ هل استوعبوا التمييز الأريب الذي تقيمه الحكومة السوفياتية بين «الامبرialisية في مجموعها» وبين «بعض أحزاب الحرب» ؟ هل يعلم العامل الروسي انه سيتوجب عليه ، على اساس التحالفات الراهنة ، ان يقاتل الى جانب العامل الفرنسي ضد العامل الالماني والانكليزي ؟ كيف يمكن لانسان من عامة الناس أن يفهم هذا التعليق الصادر عن بيلار كون (١) :

«انا نناضل في غالب الاحيان ضد الحرب بوجه عام . وليس من النادر ان يجد العديد من الصحفيين الشيوعيين انفسهم في موضع ضيق وتحرج . فهم يسألون : «كيف نفسر ان هرييو (٢) يذهب ، في الوقت الذي تعد فيه الامبرialisية العدة للحرب ، الى الاتحاد السوفيaticي ويلقى فيه استقبالا حسنا ؟ لقد قرأت مقالات في غاية الرداءة عن رحلة هرييو هذه . ولم استطع ان اقرأ في اي مكان ما غدا الان واضحا تماما بعد خطاب الرفيق ستالين في الدورة السابعة عشرة للحزب ، اعني وجود احزاب مناصرة للحرب وراء الامبرialisية . ان الامبرialisية في مجلملها ، وبوصفها مرحلة ، تؤيد الحرب ، لكن هناك احزابا حربية متنوعة تغالي في التحرير على الحرب . والمهمة الراهنة هي ان نجعل هدفنا ومرماننا هذه

١ - وجه شيوعي مجربي يبرز نجاح في الاستيلاء على السلطة في المجر لفتره

قصيرة عام ١٩١٩ . تم عاشر في المنفى . -

٢ - كان يومئذ نائبا لرئيس الوزارة الفرنسية . -

الفئة من البورجوازية التي تُولِّفُ على وجه التحديد حزب الحرب وتفالي في التحرير على الحرب .

«ولا بد من الاشارة بالطبع الى ان هذه الشرائح من البورجوازية التي تتنكر اليوم في إهاب مسالم او التي ترى ان اوان الحرب لم يئن بعد ، ستؤيد هي الاخرى الحرب حين تأذف الساعة ، الحرب ضد الاتحاد السوفيياتي ، بالتواطؤ مع الحزب العربي الحاكم . ينبغي ان نستمر في ترداد ذلك ، لكن يتوجب علينا ان نركز الهجمات على احزاب الحرب : الطفة العسكرية - الفاشية التي تتألف من الجنرالات والاقطاعيين وأقطاب الصناعة في اليابان ، الفاشيين الهاتلريين في المانيا ، «الصقر» في بريطانيا العظمى (١) ، الخ» .

(بيلا كون : «مهام الصحافة الشيوعية» راندشو ١٩٣٤-٣٣ ، ص ١٢٥٩) .

وأين نضع صناعة التسلح الفرنسية ؟
ان من لا يفقه شيئاً في سياسة تحالفات سيسال : لماذا لم يتوجه ليتفينوف ، في جنيف ، بالخطاب الى الجماهير الواسعة في الاقطار كافة ، هذه الجماهير التي لا تريد الحرب بأي ثمن ؟ لماذا لا يعقد تحالفات الا مع الحكومات الامبرialisية ، وليس مع الجماهير ؟ لماذا يخل نفسه بالوهن الذي تعلل به الامبرialisات

١ - اسم كان يطلق على رجال كتبة المشاة السابعة والخمسين قس انكلترا . - ٣ -

نفسها ، والذي يتخيل ان «عصبة الام» ، التي قضت نحبها منذ زمن طويل ، تستطيع حقا وفعلا ان تحول دون الحرب ؟ لماذا لا يقول بلغة واضحة وصريرة ، مفهومه من الجميع ، ان «عصبة الام» ليست هي التي تستطيع ، شأنها في ذلك شأن اي حكومة بورجوازية ، ان تحول دون الحرب حقا وفعلا ، وانما الذي يستطيع ان يحول دونها العمل المتضامن للشقيقة العاملين في صناعة التسلح والمواصلات في جميع الاقطار الرأسمالية ؟ لا يستطيع اي انسان ان يزعم ان سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية اكثر قابلية للفهم من سياسة فرنسا بالنسبة الى الشقيق غير الميس في مختلف الاقطار . والحال ان قابلية الفهم هي المعيار الاساسي لسياسة بروليتارية !

لندع جانبا المسألة المتعلقة بمعرفة السبب الذي جعل ممثل دولة بروليتارية يتناهى تناهيا تماما اللغة الدبلوماسية الثورية ، بانتظار ان نعرف ما لدى «قادة الثورة الاعلى» ليقولوه بصدق هذا الموضوع . بيد ان ثمة شيئا واحدا لا يكتنفه التباس : فقد كانت كلمة واحدة من ليتفينوف يوجهها ، متتجاوزا نظام هذه المؤسسة وأصولها ومزدرريا كل تسوية دبلوماسية ممكنة ، الى شقيقة التسلح والمواصلات والى أمهات الجنود في جميع البلدان ، كانت كلمة واحدة منه ستفعل فعلها باتجاه تحاشي الحرب اكثر من عشرين حلفا على الورق . هل يؤمن ليتفينوف حقا بأن سياسته قمينة بالحيلولة دون الحرب ؟ الا يشكل النداء الذي وجهه كارل ليبكنتخت عام ١٩١٤ ، في شكل رفض للاعتمادات العسكرية ، حاجزا ضد الشوفينية امنع وانجع بالف مرة من المحاكمات الاشتراكية - الديموقراطية ؟ لكن قادتنا الثوريين البروليتاريين يكنون قدرا هائلا من الاحتراز للمندوب الدبلوماسي ، ولاسيما اذا كان سوفياتيا ، الى درجة لا يعودون يفهمون معها لغة الجماهير التي تتبعهم ويتهموننا باننا مأفونون . لكننا مرة اخرى نقول: ان حساب

خمسة او عشرة ملايين من ضحايا الحرب المقبلة يفوق في القيمة
خمسة الف من العراب ، وحتى لو كانت سوفياتية ! والفاجعة
التي تتهيأ الان ستجعل أولئك الذين ينتعون اليوم توكيدها
بالجنون واللامعقولية ، يدركون هذه الحقيقة ولو بشمن من الدم !
ليس امام الاتحاد السوفيatic بصفته دولة بروليتاريه سوى
حل واحد : تحالف جيشه مع الشفيلة العاملين في صناعة
التسليح والمواصلات ، ومع الجنود البسطاء من جميع الاقطار ، ضد
الحكومات وهيئات الاركان من مختلف الاقطار . ولئن كان في
سبيله اليوم الى عقد تحالفات مع دبلوماسيي الاقطار الراسمالية
وهيئات اركانها ، فهذا لان الحركة الثوريه قد منيت بالفشل على
الصعيد الاممي . لقد توجه لينين على الدوام ، في كتاباته
وخطباته ، الى الجماهير الواسعة . وهذا يمكننا من البت في
سؤالنا : هل ستتاح ذات يوم القدرة للسياسة الثورية على تدمير
السياسة البورجوازية اذا كانت تتبنى تلك الطريقة في الكلام ،
وذلك التكتيك ، وتلك الاستراتيجية ، وباختصار ، الاساليب
البورجوازية ؟ انها لن تتوصل الى ذلك ابدا . ولن يكون في
مقدورها الافلات من مواجهة السياسة ومن اللهاش وراء الاحداث ،
وهي ستفعل ذلك على نحو اسوأ وأدهى مما يفعل الساسة
البورجوازيون . ليس ثمة سوى امكانية واحدة : قطع الاواصر
بالياسة البورجوازية ، والاستنكاف عن تقليدها ، ومعارضتها
بمبدأ السياسة الثورية الاساسي وهو التوجه باستمرار الى
الجماهير ، بلا كلل ولا ملل ، وعلى نحو بسيط وواضح .
اعني التعبير عن افكار الجماهير البينة والمضمرة ، وتحطيم توقيرها
للياسة العليا ، والامتناع عن حمل التدجيل على محمل الجد ،
والتنديد به بلا هواة ، والكلام بلغة الجماهير ، وعدم محاولة
تكييف الجماهير مع «السياسة العليا» ، بل تكيف السياسة مع
الجماهير ، اي دقرطتها وتبسيطها وجعلها في متناول الجميع

وإدراهم . أن عبارة لينين القائلة ان المفروض في المستقبل بكل طاهية ان تكون قادرة على تسيير دفة الدولة بفضل تبسيط السياسة والادارة ، تحتوي في الحقيقة على الفكرة المركزية في الديموقراطية الاجتماعية بصورة جنинية . و«السياسة العليا» ما كانت لتوجد لو لا ان السياسة الثورية قد تبنت شكلها ولفتها وطريقتها في التفكير ، حتى وان كان المضمون ثوريا ، ولو لا أنها امتنعت عن التوجه الى الجماهير وعاملتها على العكس معاملتها لطفل مطلوب اقناعه ولا بد في النهاية ان يدرك ، وهو يدرك بالفعل أكثر فأكثر ، انه وقع ضحية الفش والاستهزاء (١) .

مخطط السياسة الثورية

اذا كنا نعتقد بأن طموح الثورة الاجتماعية الى حل مشكلات الاقتصاد والحضارة باتجاه ديموقراطية اجتماعية له ما يبرره وبأنه يستند فعلا الى اساس ، فان المشكلات والمبادئ السياسية التي تظل مطروحة هي التالية :

- ١ - ما المناورات التي قامت بها مختلف اتجاهات البورجوازية لكسب تأييد الجماهير او لتفرقتها وقسمها ؟
 - ٢ - كيف يمكن لهذه الجماهير ان تتبع جماعات او احزابا سياسية لا يسعها ابدا ان تفي بوعودها ؟
 - ٣ - ما حاجات الجماهير وما مختلف مشاربها ؟
 - ٤ - ما الحاجات المشروعة بين هذه الحاجات ، ما الحاجات
-

- ١ - ان مسألة السياسة الخارجية السوفياتية وعلاقتها بمشكلات علم النفس الجماعي تستدعي بحثا مطولا ومفردا . سوبر-

التي يستطيع المجتمع ان يضمن اشباعها والتي هي ضرورة من وجهة نظر الحياة ؟

٥ - هل تسمح حالة الاقتصاد العالمي باشباع الحاجات عن طريق تصفية السيطرة الرأسمالية واستبدال الفوضى الاقتصادية بالخطيط ؟

٦ - هل تعلم الجماهير ما المؤسسات الاجتماعية التي تناولت تلبية حاجاتها ، وما سبب وجود هذه المؤسسات ؟

٧ - كيف السبيل الى تصفيتها و بم ينفي ان تستبدل ؟

٨ - ما الشروط الاقتصادية والاجتماعية والسيكولوجية الضرورية لتلبية حاجات الجماهير الواسعة ؟

يمكننا ان نستخلص ، من كل سؤال من هذه الاسئلة ، بلا استثناء ، الضرورة الحتمية للثورة الاجتماعية الشاملة لمختلف ميادين الحياة بلا استثناء . وبعبارة اخرى : لا يجوز لمجهود علم النفس الجمعي ان يكون تابعاً للسياسة الاقتصادية ، بل ان السياسة الاقتصادية هي التي ينفي ان تضع نفسها في خدمة علم نفس جمعي يفهم الجماهير ويرشد خطها . فليست حاجات الانسان في خدمة السياسة الاقتصادية ، بل ان السياسة الاقتصادية هي على العكس في خدمة تلبية الحاجات .

السياسة البورجوازية للحزب الشيوعي الالماني

تظهر سياسة الحزب الشيوعي الالماني للعيان غياب مثل هذه السياسة الثورية ، التي هي الوحيدة الممكنة ، في المانيا . فحين كان قادة الحزب الشيوعي الالماني يفيضون طوال ساعات في «قصر الرياضة» في الحديث عن تصارع المصالح بين الدول الكبرى

وعن الخلفية الاقتصادية للحرب القادمة ، كانوا يقلدون ، من دون
قصد منهم ومن دون معرفة ، الشكل البورجوازي للسياسة . ان
ميل ساستنا الثوريين لشديد الى منافسة بونكور (١) . ولئن
اكتفوا بالتقليد وسدوا دونهم الامكانيات والاحتمالات قاطبة ،
فذلك لاسباب تتعلق ببنية القائد الثوري . وهم سيشعرون من
جديد ، ولا بد ، بأنهم يتعرضون هنا لللاهانة والشتيمة ، وسينتعون
ذلك بـ «الثورة المضادة التروتسكية» . وليس ثمة من امل في
اقناعهم بأنهم ينتهجون من حيث الشكل ، وبالتالي موضوعا ،
سياسة بورجوازية . وحتى نقطع الطريق سلفا على كل احتمال
لاحتجاج جاد سنضرب مثالا عينيا واحدا ، لا عدة امثلة ، يظهر
لليان ان الحزب الشيوعي الالماني استفني عن مبدأ السياسة
الثوروية بمبدأ السياسة البورجوازية .

في كانون الاول ١٩٣٢ ، نظم الحزب الاشتراكي الالماني
تظاهر في حديقة عامة . وانضم المنظمات الشيوعية ، ولاسيما
الصادمية منها ، الى المظاهرة ، وامتزجت بجمهرة المظاهرين
الاشتراكيين - الديموقرطيين ، وحققت عمليا الجبهة الواحدة من
دون اهتمام نظري كبير بموضوع التناحرات الاميركية - اليابانية .
تلك كانت لغة الجماهير وإرادتها .

كانت قيادة الحزب الشيوعي الالماني تريد ، او تزعم انها تريد
الجبهة الواحدة «تحت قيادة شيوعية خالصة» ، وانحت باللائمة
على الاعضاء الحزبيين : فقد كانت تعليمات الحزب تقضي بالبقاء
على مقربة وبـ «تحية» المظاهرة الاشتراكية - الديموقراطية . وفي
الحقيقة نفسها كان تورغلر يفاوض سرا القيادة الاشتراكية -
الديموقراطية على تكوين الجبهة الواحدة ، ولم يكن للجماهير

١ - بول بونكور : سياسي فرنسي . -م-

اطلاع على ذلك ؟ اذ كانت التصريحات الرسمية تؤكد ان جبهة واحدة مع القيادة الاشتراكية - الديموقراتية هي جبهة «مناهضة للثورة» . وقد شاركت انا نفسي في اجتماع سري بين بعض القادة الشيوعيين والاشتراكيين - الديموقراطيين لبحث موضوع تشكيل جبهة واحدة . وكانت الاوامر تقضي بـلا يطلع احد في الخلايا على ما يجري . هذه هي **السياسة البورجوازية** . وعكس ذلك بالتحديد هي السياسة الثورية : اصدار التعليمات الى الشيوعيين بدعم المظاهره الاشتراكية - الديموقراتية ، والاعلان من مكبرات الصوت للجماهير عن ان ثمة مفاوضات جارية بقصد الجبهة الواحدة ، اي اتاحة امكانية التقدم لافكار الجماهير وتمكينها من التعبير عن رغباتها وأماناتها . لكن بدلا من ذلك كان الحزب يمارس «السياسة العليا» و«الاستراتيجية» و«التكنيك» من دون الجماهير ، وضد الجماهير ، ويقصي جانبا ويطرد من صفوفه جميع أولئك الذين كانوا يريدون ويطبقون السياسة الثورية .

ان الغاء الدبلوماسية السورية مبدأ قديم من مبادىء الثورة . وهو مبدأ بدعي لا مجال للمكايدة فيه نظرا الى انه لن يعود هناك ما يخفى ما دامت الثورة الاجتماعية تحقيق الارادة الشعبية ، التي ترشد خطها البروليتاريا الصناعية ، ضد مالكي وسائل الانتاج . اذن لن يعود هناك ما لا يجوز للجماهير ان تفهمه وتستوعبه . بل على العكس : فالضرورة تقضي بأن تعرف وتراقب كل شيء .

السياسة الثورية داخل الحزب

اذا درسنا تطور سياسة الاحزاب الشيوعية منذ وفاة لينين ، لاحظنا ان مبدأ التوجه الدائم الى الجماهير ينحى جانبا اكثر

فاكثر ، وان البير وقراطية ثبت اقدامها وتوطد دعائمها طرداً مع تقليد أشكال السياسة البورجوازية في داخل الحزب وخارجـه على حد سواء . وبـدلاً من انتهاج الديموقراطـية داخلـ الحزب ، اعلـنت سيـاستـةـ الكـوـالـيسـ والمـكـائـنـ وتأـلـيفـ العـصـابـاتـ عنـ ظـهـورـهـاـ . وـكانـ ذـلـكـ بـمـثـابـةـ لـفـمـ دـائـمـ لـقـوىـ الحـزـبـ الثـورـيـ الـذـيـ يـجـمعـ معـ ذـلـكـ خـيرـةـ العـناـصـرـ الثـورـيـةـ .

في تـشـريـنـ الـأـولـ ١٩١٧ـ ، حـينـ اـدـرـكـ لـينـينـ انـ سـاعـةـ اـنـتـفـاضـةـ الشـعـبـ قدـ اـزـفـتـ وـاـنـ الـقـيـادـةـ الـبـلـشـفـيـةـ تـضـعـ المـرـاقـيلـ فـيـ وجـهـهـاـ ، لـبـثـ عـلـىـ وـفـائـهـ لـبـداـ السـيـاسـةـ الـثـورـيـةـ : فـقـدـ تـوجـهـ اـلـىـ جـمـهـرـةـ اـعـضـاءـ الـحـزـبـ ، مـنـ دـونـ اـنـ يـشـكـلـ عـصـابـةـ ، وـمـنـ دـونـ اـنـ يـحـيـكـ المـكـائـنـ ، وـمـنـ دـونـ اـنـ يـرـغـبـ فـيـ الـاـنـتـصـارـ عـنـ طـرـيـقـ نـشـاطـ فـؤـيـ وـتـشـيعـيـ . اـنـ اـبـعـادـ الجـماـهـيرـ عـنـ المـنـاقـشـاتـ وـعـنـ الـاجـرـاءـاتـ الـثـورـيـةـ ضـرـبـ مـنـ الـثـورـةـ الـضـادـةـ ، اـيـاـ تـكـنـ الـنـيـاتـ الـذـاتـيـةـ . وـلـيـسـ لـدـىـ السـيـاسـةـ الـثـورـيـةـ مـاـ تـخـفـيـهـ عـنـ الجـماـهـيرـ ، وـاـنـمـاـ تـهـدـفـ عـلـىـ عـكـسـ اـلـىـ اـنـ تـكـشـفـ لـهـاـ عـنـ كـلـ شـيـءـ . وـلـيـسـ فـيـ مـسـطـطـاعـ السـيـاسـةـ الـبـورـجـواـزـيـةـ اـنـ تـسـمـعـ لـنـفـسـهـاـ بـكـشـفـ كـلـ شـيـءـ ، وـاـنـمـاـ عـلـيـهـاـ اـنـ تـخـفـيـ كـلـ شـيـءـ . وـنـسـتـطـيـعـ عـلـىـ الدـوـامـ اـنـ تـعـرـفـ الـمـوـقـفـ السـيـاسـيـ الـرـجـعـيـ بـدـائـةـ سـيـاسـةـ الـكـوـالـيسـ اـيـنـمـاـ اـتـبـعـتـ .

اـنـهـ لـمـرـيـةـ عـظـيمـةـ لـلـسـيـاسـةـ الـجـنـسـيـةـ الـثـورـيـةـ اـنـ تـكـونـ مـضـطـرـةـ اـلـىـ التـحدـثـ باـسـتـمرـارـ بـلـغـةـ الـجـماـهـيرـ ، وـاـلـاـ تـلـاقـيـ مـنـاقـضـةـ مـنـ جـانـبـ الـبـورـجـواـزـيـةـ ، نـظـرـاـ اـلـىـ اـنـهـ لـاـ يـمـكـنـ اـنـ تـكـونـ هـنـاكـ سـيـاسـةـ جـنـسـيـةـ بـورـجـواـزـيـةـ اـيجـابـيـةـ . لـيـسـ ثـمـةـ خـطـرـ تـبـرـجـ يـتـهدـدـ اـذـنـ مـمـثـلـ السـيـاسـةـ الـجـنـسـيـةـ الـثـورـيـةـ . وـلـيـسـ فـيـ الـامـكـانـ اـنـ تـوـجـدـ دـبـلـومـاسـيـةـ سـرـيـةـ فـيـ السـيـاسـةـ الـجـنـسـيـةـ . اـنـ السـيـاسـةـ الـجـنـسـيـةـ اـمـاـ اـنـ تـتـوـجـهـ اـلـىـ الـجـماـهـيرـ وـاـمـاـ اـنـ تـكـفـ عـنـ الـوـجـودـ .

-٤-

تطویر الوعي الطبقي انطلاقاً من حیاة الجماهير

القيادة والحزب والجماهير

بالرغم من ان الحقيقة الواقعية التالية تشق على النفس ملاحظتها وضارة بكل تأكيد بالحركة الثورية ، فلا سبيل الى المماراة في ان مختلف الجماعات الثورية ، التي تدعي لنفسها جميعا امتياز كونها الوريث «الوحيد وال حقيقي» لـ «الماركسية واللينينية الصحيحتين» ، ليس لها من وجود وعديمة الفعالية اذاء المهام الضخمة المطلوب تحقيقها ، وهذا بصرف النظر عن الفروق والاختلافات التي تفصل بين هذه الجماعات . فهذه الجماعة تريد اولا أن تبني الحزب الثوري ، وتلك الجماعة تريد ان تنضوي الجماهير تحت لوائها قبل المشاركة في تأسيس «الاممية»

الجديدة ، وجماعة ثالثة تزعم باستمرار أنها هي «الطبقة العاملة» والقيادة الثورية الوحيدة بالرغم أنها بعيدة عن ذلك غاية البعد ، وجماعة رابعة تحدد اتجاهها المميز لها بذلة مسألة تفصيلية محددة ومحدودة ، ألغى . وقد سبق أن قلنا ان هذا التشتت ناجم عن طريقة ناقصة أو غير صحيحة في طرح المشكلات ، وان الشائط المتبادل لا تحقق أدنى تقدم للقضية . عيناً تبحث عنمن يطرح ويحل ، في المناقشات الثورية الراهنة ، مسألة معرفة سبب الاخفاق في تأسيس حزب ثوري جديد ، ومعرفة سبب عدم افلال المنظمات الثورية السابقة في اكتساب تأييد الجماهير بالرغم من الجهاز الذي كان متوفراً لها ، وبوجه عام ، معرفة علة بقاء مشكلة العلاقات بين القيادة والحزب والجماهير مشكلة عويصة مستعصية بعد مضي ١٧ عاماً على الثورة الروسية . أليس من المحتمل ، بعد كل حساب ، أن يكون هناك خطأ فادح غير ظاهر للعيان ؟ لكننا نجانب الصواب مع ذلك لو عزونا أصل الكارثة الى البيروقراطية التي زرعها ورعاها ستالين ، او الى تبرّج القيادة الاشتراكية - الديموقراطية ، او كذلك الى تلقى هتلر مبالغة ضخمة من رجال الصناعة . فالمسألة الجوهرية تبقى مسألة معرفة علة ارتضاء العمال بالاصلاحية والبيروقراطية وقبولهم بهما . وبذلك نجد انفسنا وقد عدنا الى المسألة الاساسية ، مسألة العلاقات بين القيادة والحزب والجماهير .

يُزعم مؤسسو الاممية الرابعة ، اذا أخذنا بما يقوله مسؤولوهم وصففهم ، انه من الواجب ان تكون البداية انشاء الحزب الثوري ، ومن ثم اكتساب البروليتاريا ، مع ان البورجوازية الصغيرة هي وحدها التي ستتنضم . انى لا اشك في ان قيادي الاممية الرابعة يدينون هم انفسهم نقص هذا الطرح وعدم كفايته . فالمرء لا يستطيع ان يزعم نفسه ماركسيانا وأن يفصل في الوقت نفسه فصلاً معمماً وجذررياً بين القيادة والحزب والجماهير . فالعلاقة بينها

— لنسخدم ولو لمرة واحدة كلمة كبيرة — علاقة جدلية . وربما
القول : ان الحزب الثوري لا يمكن ان يولد في الفراغ ، لا يمكن ان
ت تكون قسماته ومعالمه الاولى الا انطلاقا من الجماهير ؟ وهذا
يستوجب ان يتكلم مؤسسو الحزب لغة الجماهير التي يفترض به
ان يتالف منها . لكن الجماهير لا تفهم الفروق والاختلافات
الدقائق بين مختلف الاتجاهات ولا تكترث لها . ولا يتكون الحزب
الثوري على اساس انشاء واضح لتصور ولممارسة مطابقين للواقع
فحسب ، بل ايضا ، وفي المقام الاول ، على اساس معالجة المسائل
التي تم مختلف فئات السكان . وانما بعد ذلك فقط تقدم
الجماهير الواسعة للحزب الكوادر التي هو بحاجة اليها . وذلك
يسمح بالمقابل بهيمنة افضل على الجماهير ، وهذا يؤثر من جديد
باتجاه معاكس . ان الحزب والجماهير يتقدمان من خلال
مساهمتهم المتبادلة . وانما من هذا الانصهار الصميم ، وفي
الوقت نفسه من هذا الانتقاء للكوادر القيادية انطلاقا من الجماهير ،
يظهر الى حيز الوجود الحزب الجماهيري ، اي الحزب الذي يقود
الجماهير محددا بالكيف لا بالكم . لقد كان الحزب الشيوعي الالماني
ينظم حملات تنسيب للاعضاء ، فيقبلهم بلا انتقاء . كان «حزبا
جماهيري» بالمعنى الكمي ، لكنه ذاب واضمحل ، جزئيا بسبب المد
والجزر في تعداد المنتسبين اليه ، وجزئيا بسبب النقص في
التمايز بين الكوادر المكونة من قبل وبين جمهرة الاعضاء . وسوف
نعود الى هذه المسألة في مقال عن التنظيم .

لقد كانت الفكرة الهادبة على الدوام للسياسة الجنسية الالمانية
هي ان الزمرة الموجهة لنشاط جماهيري لا تستطيع ابدا ان تدرس
وتحص كل شيء بالتفصيل ، وأن الجماهير لا تستطيع ابدا من
جهة اخرى ان تفهم من تلقاء نفسها الواقع الاساسية وان تصوغها
وان تحولها الى ممارسة محددة ، وانه لا غنى وبالتالي عن تماس
حي بين القيادة والجماهير ، وباختصار ، ان النظرية يجب ان

تستحدث انتلافاً من حياة الجماهير وأن ترجع إليها في شكل ممارسة . وقد تعلم «السياسة الجنسية» الالمانية من نشاط الحزب أن الأعضاء الحزبيين لا ينبغي أن يكونوا أجهزة لايصال قرارات القيادة ، وإنما فقط وسطاء بين حياة الجماهير والقيادة . وحتى يتحقق مثل هذا الاتصال ، دعت «السياسة الجنسية» إلى «امسيات تأهيل» . ولم يكنقصد من هذه الاجتماعات تثقيف الكوادر ، وإنما التشغف منها (من لا يتذكر الاجتماعات المشهورة للحزب الشيوعي الألماني التي كان فيها مثل هذا التماس ممنوعاً منعاً مباشراً !) . ولم يكن هناك من موضوع محدد أو مناقشة محددة ، لكن الكوادر والرفاق كانوا يسألون بكل بساطة عن كنه متاعبهم الحالية . وكان ذلك قميّنا على الأقل بأن يوفر الأسباب لعدم الوقع في الخطأ فيما يتعلق بما هو أهتم من غيره آنذا . وكان يدور نقاش مشترك حول الصعوبة المواجهة ، فتارة كان يوجد حل يترك أمر التتحقق منه لمحكمة الممارسة ، وطوراً كان يؤجل القرار إلى يوم توفر معلومات ألمى . وبذلك كانت الحياة تعبر عن نفسها بحرية من خلال التبادل الودي لوجهات النظر . ولم تكن هناك حاجة لصدح الرؤوس بفية ابتكار نظريات ، إذ كانت هذه الأخيرة تظهر من تلقاء نفسها . وقد دلت المشاركة المعاذمة وخوبية المناقشات على أن امسيات التأهيل عمل موفق . وكانت هذه الامسيات قميّنة بأن تقنع ألمء بأن الحياة لا تدع أحداً يشوهها ، وإنما تعبر عن نفسها بصورة واضحة وبسيطة . كان يكفي لذلك أن تدع حرية الكلام بقلب مفتوح لكل عضو في المنظمة (ناهيك عن المشاركيين الآخرين الذين ليسوا أعضاء فيها) . وكانت الصعوبة الوحيدة التي لها أهميتها تمثل في التشويه الفكري الناجم عن الأفكار الخاطئة للأيديولوجيا البورجوازية ، هذه الأفكار التي كانت تتبع مع ذلك على ضوء التمييّز الصادق والقريب من الحياة وغير الدوغماتي . لكن عدد امسيات التأهيل لم يتجاوز الثلاث .

فقد امتنع ممثلو الحزب الرسميون عن توجيه الدعوات الى
الاجتماع .

موقف «السياسة الجنسية» ازاء «الحزب الجديد»

من الممكن ان نصوغ على الوجه التالي اصعب المسائل وأشدتها
الحاجة في اعادة تكوين الحركة العاملة : احزاب جديدة أم تجديد
ثورى للاممية الثالثة ؟ ولا تستطيع «السياسة الجنسية» في
الوقت الراهن ان تخترأ ايها من هذين الطريقين ، وهذا لسبعين .
فهي لا تعرف ، من جهة اولى ، ما الحلقات والفلئات والمنظمات التي
 تستطيع ان تبني باربع ما يمكن وبانجع ما يمكن وجهات نظرها
 بقصد مقتضيات سياسة جنسية ثورية . واستنادا الى الموقف
 الذي وقته حتى الان المنظمات السياسية الكبيرة ، لا تستطيع ان
 تأمل شيئا اكثرا من المنظمات المحبذة لاممية جديدة . لكن ليست
 هذه هي النقطة الحاسمة : فما السياسة الجنسية الا عنصر - وان
 يكن ضروريا ، بل مركيزا - من مجمل عناصر الجبهة الثورية . اما
 الشيء الحاسم فهو معرفة من سيكون بنية الحركة العاملة المجددة .
 ان هذه النقطة لم توضح قط حتى الان . ولو كنا نعرف فعلا من
 اليوم ان الاعضاء الحاليين في الحزب الشيوعي الالماني ، على سبيل
 المثال ، هم الذين سيشكلون تلك التوازن (مع استبعاد القيادة الحالية
 بالبداهة) ، لكان من البغيث واللامعقول تأسيس حزب ثوري جديد؛
 اذ ان الاعضاء الثوريين في الحزب الشيوعي الالماني سيجدون
 انفسهم ملزمين ، على اساس هذه الفرغية ، لا باقالة القيادة
 القديمة العاجزة عن اي نقد ذاتي فحسب ، كما جرى في الماضي
 اكثر من مرة ، بل ملزمين ايضا باقصائهما بصورة رسمية واستنباط

قيادة جديدة رويداً رويداً من داخل صفوهم بالذات . وعلى كل حال ، يستحيل الامتناع الى ما لا نهاية عن وضع قرارات «اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية» موضع تنفيذ ، وعلى سبيل المثال الامتناع عن الاعلان عن «صعود القوى الثورية» وعن الدعوة الى «الاضراب العام» ، بالرغم من أن «اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية» تطالب بذلك ، والاستمرار في الوقت نفسه في المماهاة بين «الحزب الشيوعي» و «اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية» . ان موقفاً سياسياً كهذا لم يتم وغامض . ومسألة معرفة ما «الحزب» ومن «الحزب» تستأهل اليوم ان تسلط عليها الضوء وأن توضح أكثر من اي يوم سبق . هل الحزب مجموع الاعضاء ، ام جهاز الكوادر وحده ، ام «اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية» ؟ نحن نعلم ان خيرة العناصر في الاشتراكية – الديموقراطية تستخدم بدورها مفهوم «الحزب» وكأنه صنم او وثن معبد . والحق ان وحدة الحزب وتلاحمه يمكن ان يكونا في لحظة بعينها قوة هامة ، وفي لحظة اخرى عقبة كبيرة امام الحركة الثورية ، وذلك تبعاً لبنية الحزب وسياسته وعمله **الموضوعي** .

ان نخبة قوات الثورة ، اعني شقيقة الصناعة والمواصلات ، لا تنتهي «بعد» الى الحزب الشيوعي . ويتمثل اعضاء الحزب قصارى جهودهم ، بمختلف الوسائل ، اليوم كما في الامس ، لاجتذابهم ، لكن الارادة والشجاعة الذاتيتين غير كافيتين وحدهما لذلك . فالوصول الى ذلك يستوجب ايضاً معرفة افضل الوسائل . لعل نخبة القوات تلك ستؤلف عما قريب نواة التنظيم الثوري من دون ان ترغب في الاندماج بالتنظيم الراهن للحزب الشيوعي؛ وبالفعل ، لقد كانت فيه عام ١٩٢٣ ، ثم هجرت صفوه ؛ ولا بد لنا من ان نفهم اسباب ذلك . وعلى كل حال ، انما في تلك اللحظة اكتسبت مسألة تنظيم ثوري جديد أهمية فائقة . وكذلك ستكون الحال اذا ظهرت الى حيز الوجود حركة جماهيرية خصبة وثابتة ومستمرة ،

لا مجرد التهاب عابر ، ليس لدى العمال الاشتراكيين
– الديموقراطيين فحسب ، بل أيضا لدى بروليتاريي «ف. ه»
الذين يتسم اتجاههم بالثورية (١) .

١ – ملاحظة اثناء التصحيح : ان الزام «ف. ه» في المانيا حدودها في
٢٠ حزيران ١٩٣٤ قد يبيّن ان الناقضات (التي تكلمنا عنها في «علم نفس الفاشية
الجمعي») بين المظاهر الثوري والمظاهر الرجعى للفاشية قد انفجرت على حين بقته
بعد ان كانت ايديولوجيا الفاشية توحد بين هذين المظاهرين . انتي لا اقول ذلك
لابعد ، كما يفعل القادة الثوريون عادة ، ان «التحليل» قد تأكّدت صحته ، وانما
للسبب الآتي : فحتى عهد قريب كانت صحافة الكومنترن تنهال بالشتم على كل
محاولة تزيد ان ترى في «حزب عمال المانيا القومي الاشتراكي» شيئاً اكثراً من
 مجرد شرطة انبساط تابعة للرأسمال المالي ، اي على كل محاولة تزيد ان ترى فيه
طاقة الجماهير الثورية وقد تغلفت باهاب رجعى . أما اليوم فقد رأت بأم عينيها
بنات صحة فرضيتها عن صعود ثوري من خلال تصفية الجناح اليساري في «حزب
عمال المانيا القومي الاشتراكي» . وينبغي ان نأمل ان لا يعرف تاريخ الحركة
الثوروية في المستقبل مثل هذا الارتكاب ومثل هذه الخفة . ان من شارك في
صراعات الحرب الداخلية بين ١٩٢٩ و١٩٣٣ يعلم ان نظرة استئثار واتهام كانت
تسدد الى كل فرد يومئذ الى الطابع الثوري المبهم لـ «ف. ه» ، او يشير الى
الحقيقة الواقعية التي لا مراء فيها وهي ان قسماً كبيراً من «اتحاد مكافحة الجبهة
الحمراء» (منظمة صدامية للحزب الشيوعي الالماني – «م») قد انضم الى
«ف. ه» ، او يؤكّد ان اعضاء «ف. ه» ينجذبون من بين الشغيلة ،
وان منظمة «ف. ه» هي موضوعاً فحسب ، وليس ذاتياً ،
منظمة من المرتقة تعمّل لصالح الرأس المال . لم يكن ذلك موضع تحبيذ ، ولم تكن
العين ترى في الفاشية سوى وظيفتها الرجعية ، ولم تكن ترى الطاقة الثورية
في قاعدتها الجماهيرية ، وبذلك كانت المركبة خاسرة سلفاً . أما وقد حصل ما
حصل ، ونظرنا الى انه لم يعد من الصعب تميّز الناقضات ، فان هناك تسليماً
بما كان في السابق محظوراً . وسوف يقول «المخلصون للحزب» ، تعزية منهم
لأنفسهم ، ان ذلك شيء جيد في حد ذاته ، وانه لا يجوز طلب اكثر مما ينفي =

ان في وسعنا ان نفلح اليوم ، لأن كل شيء في غليان وفوران ،

= وان الكومنترن غير رأيه في تقييم الفاشية كما غيره بقصد مسألة الجبهة الواحدة مع الاشتراكية - الديموقراطية . لكن الواجب يقضي بأن نرد على ذلك بقولنا: أن القيادة التي لا تسبق الجماهير في تقييم الاحداث والتطورات ، والتي لا تتوقع ولا تستبق ، ليست قيادة ، وإنما جهاز يعرقل التطور الاجتماعي . وحين يدلل شيوعيون صالحون على مثل هذا الحلم ومثل تلك الدعامة تجاه القيادة ، فانيا عن انصياع لانصوري للسلطة . لقد علمتنا تجربة الحزب العمالي انه حين لا يتقدى الكادر المتوسط بتعليمات الحزب ، فهذا لانه يرى ويذكر غريرا على نحو أحصى مما يفعل المسؤولون في القمة . وما تزال تواجهنا ، اليوم ايضا ، تطورات ينبغي ان تتوقعها وان نظورها انطلاقا من التناقضات الراهنة ، اذا كنا نريد السيطرة على المستقبل، لا ان نواجهه من دون ان تكون مستعدين له . اتنا تركب على سبل المثال المجازفة التالية ، وهي ان تض محل الحركات الجماهيرية القوية التي تهز هنا وهناك أقطارا شتى (الولايات المتحدة الاميركية ، فرنسا) من دون ان يكون ثمة من يرشدها ويوجهها ، ومن دون ان يكون لها هدف واضح ، ثم تتلاشى ليحل محلها خمول وسبات وخيبة مريرة . ان هذا الاحتمال قائم ، لكن من الممكن ايضا ان يتطور الصعود الجديد لنجد الجماهير ولوعيها الى موقف ثوري عالمي . ونستطيع ان نقول بكل ثقة انه كان في مقدورنا اليوم ان نضرب ضربة كبيرة بعد احداث ٢٠ حزيران ، نظرا الى الاختلال الاقتصادي الخطير في المانيا ، لو ان القيادة الشيوعية مهدت الطريق منذ عام ١٩٢٣ ، او على الاقل منذ عام ١٩٢٩ . لا جدوى البتة من التبرؤ ومن نفي التهمة عن النفس ، وإنما ينبغي استخلاص دروس الماشي . ان الواجب يقضي علينا اليوم ، من خلال تفهم صحيح للخطوط العريضة لتقدير السيرة الاجتماعية وتراجعيها ، ان نند العدة كاملة للامساك بمقاييس المجتمع فيما اذا دبت فيه الغوضى . وبانتظار ذلك ، يتوجب على الجمهورة الكبرى من سكان المعمورة ان تكتسب بصورة بطيئة لكن اكيدة الشعور الذي لا يتزمرع بأننا الوحيدين الذين يفهمونها (لا ان تكتفي بهم بارتو وليتغيّر ورغائبا =

ولأن ما من شيء قد أخذ شكله النهائي . وما كانت مسألة حزب جديد لتنظر على بساط البحث لو وجدت داخل الحزب الشيوعي امكانية لاثارة هذه المسائل ، ولتبادل وجهات النظر ، ولisper احتمالات التطور . والحال أن شيئاً من هذا لم يحدث . وأنه لفي وسعنا ان نبدأ بدراسة سيرة التراكم والنضوج الثوري الجارية الان في المانيا بين مختلف فئات السكان ، وان نستخلص في كل لحظة الموقف الواجب اتخاذه .

لو ان الكوادر الثورية لا يدافن اليوم كل منها عن تنظيمه الخاص في المقام الاول ، ولو دافعت على العكس عن قضية الاجماع الثوري ، ل كانت الان على درجة كافية من المرونة لتبادر الى التحرك السريع والمناسب حسب حركة الجماهير ، ولكان في مستطاعها ، بدلاً من ان تدعوا بصورة مجردة وميكانيكية الى الاضراب العام ، ان تساعد عضو «ف.ه» وقادر حركة الشبيبة والتنظيم النسوی ، بتقديمها لهم تفسيرات وشروط عينية بصدق التناقضات والحلول والحالات المستعجلة ، وان تضمن لنفسها وبالتالي بصورة آلية ثقة هؤلاء جمیعاً ، وفي نهاية المطاف قيادتهم . ان الخواء والمدرسية والجمود وإعراض الجماهير تأتی على وجه

= الخاصة). وهذه الثقة لا يمكن اكتسابها بالحيلة ، بل ينبغي ان تضع الجماهير ثقتها الصادقة والحارة في الشيوعية ، هذه الثقة التي لم يحل «القيادة الاعلون» دون تطورها طوال عشر سنوات فحسب ، بل قصوا عليها ايضاً قضاء مبرماً وپیاشراً باخطائهم وبقلة ذكائهم . وال الحرب القادمة هي الفرصة الكبيرة الوحيدة التي يمكن توقعها حالياً للثورة الاجتماعية . وينبغي الا نضيعها ، كما ضيعنا فرص ٢٠ تموز ١٩٢٣ ، وكانون الاول والثاني ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ، و٢٠ حزيران ١٩٢٤ . ويتجوب على الثوريين ، للوصول الى هذا الهدف ، ان يدمروا في انفسهم اولاً الایمان بالسلطة والسيطرة !

التحديد من أن كل تنظيم قائم يعد نفسه وكان الآلهة نفسها قد اختارته وأصطفته ليقود الثورة القادمة ، ويُسْعى على هذا الأساس إلى أن يدين ويُدْمِغ سائر التنظيمات الأخرى بمناهضة الثورة . وان نبالغ فلن نبالغ أبداً بالتنديد والتشهير بادعاء التفوق الساذج هذا وبطفوئية هذا التنافس على الحظوة والنفوذ . ان على «السياسة الجنسية» أن تحفظ من الافتراض بأن جهازها وتنظيمها يمثلان اليوم قيادة السياسة الجنسية الثورية . فالقيادة النهائية ليست مطلباً ، وليست حقاً ، وإنما فقط نتيجة سيرورة وتطور : فمن يفهم على نحو أفضل من غيره ما يجري في العالم ، ومن يشجع أكثر من غيره الغليان والنضوج الثوريين ، هو هو من ستقع القيادة على كاهله . ان المرء لا يستطيع لا أن يستأهل ، ولا أن يستملّك ، ولا أن يطالب ، ولا أن يحتكر قيادة الثورة . ومن يرفع اليوم صوته عالياً وجهازه ، في هذا الظرف العالمي الشديد الإبهام والتقييد والعصي على الفهم وغير المأمون العاقب ، ليتبجح بأنه هو القائد الاوحد ، الحقيقي ، الذي لا يمكن أن ينزعه منازع ، للثورة التي ما تزال في رحم الفيف ، فيسقط هو نفسه في غياب النسيان بأسرع من غيره اذا ما مضت الامور قدماً الى الامام الى حد يسمع بالكلام بحق عن صعود ثوري .

ولا بد من شرط هام آخر حتى يكتب النجاح لاعادة بناء الحركة :

ان البروليتاريا المحبوبة فعلاً بوعي طبقي أقلية ضئيلة نسبة الى الامة قاطبة . وحتى لو صح ان القيادة تقع على عاتقها ، فان حاجتها الى حلفاء ستظل ماسة . ان الرفاق الالمان يرددون مراراً وتكراراً ان جميع اسباب التفاؤل متوفرة ، لأن الثوريين الصالحين يتلقون من جديد ، ويتناقشون ، ويعملون معًا ، ويتبادلون المشورة . هذا بكل تأكيد هام ، بل هام جداً ، لكنه لا يبيح مع ذلك التفاؤل . فالمسألة قبل كل شيء هي مسألة معرفة ما اذا كان

هؤلاء الثوريون الصالحون على تماس وصلة بالجماهير الواسعة غير المنظمة ، وما اذا كانوا يعيرون انتباهم ، بفية اقامة جسور هذا التماس وهذه الصلة ، لكلام هذه الجماهير الواسعة ، الميسة وغير الميسة على حد سواء ، ولا فكارها ، ولتناقضاتها ، وما اذا كانوا يفهمونها ويسعهم ان يعطوها معنى ثوريا ويعيدوها الى الجماهير في شكل اوضح وأصفى واقرب الى الوعي الطبقي . ان هذه الكوادر ستثبت هيئة اركان بلا جيش ، اذا كان المسؤولون عاجزين عن الاستمرار في الانبعاج بالجماهير ، والاستمرار في عدم التميز عنها والاستمرار في فهم الافراد سواء ا كانوا مسيسين ام غير مسيسين . ولا بد من التخلص من العصبية اذا كنا نريد لاعضاء الحزب الا يكونوا مجرد اداة تنفيذية للقيادة ، بل ان يكونوا على العكس وسيطا حيا بين الجماهير والقيادة . وليس للقيادة ان «تحمل البرنامج الشيوعي الى الجماهير» او ان «تحول الجماهير الى مناضلين محبوين بالوعي الطبقي» ، بل ينبغي عليها ، بعد ان تكون قد حللت السيرة التاريخية الموضوعية ، ان تعمل في المقام الاول على ان تنهي وتطور لدى الجماهير الصبو الثوري الموجود فيها أصلا ، وال موجود حتى لدى البروليتاريا غير الميسة والبورجوازية الصغيرة والفلاحين . ولو راجعنا صحفة اليوم الثورية ، لما وجدنا فيها من شيء تقريرا سوى كلام الحزب ، ولللاحظنا انعدام اي رؤية ذكية للتناقضات القائمة بين مختلف فئات السكان . هذا ، مع ان المفروض في الاربع الثلاثة على الاقل من كل جريدة ان تكون مكرسة لتحقيق الاتصال ، اللغظي والفعلي ، بالجماهير الواسعة ؟ والربع الباقي أكثر من كاف لتكرار المبادئ الكبرى للماركسيّة . وفي مستطاعنا ان نصوغ ما تقدم على النحو الآتي : الى ان تكون قد تعلمنا كيف نقدم النظرية بلغة بسيطة مفهومة من الجميع ، والى ان تتوصل الجماهير الى ايلاء النظريات اهتماما ، ينبغي علينا باستمرار ان نقدم الشيء ذاته في كتابة

مزدوجة : باللغة الماركسية وبترجمة فورية الى لغة الناس الدارجة، هؤلاء الناس الذين لن نعدو بدون عملهم وتفهمهم ان تكون مملاكون مهذارين .

لقد جرت العادة ، عند مناقشة هذه المشكلات ، على طلب وصفات جاهزة من «السياسة الجنسية» . وهذا الطلب يدلل في حد ذاته على عدم فهم للماركسية ولمهمة الثوريين الاساسية التي هي أن يعرفوا كيف يفكرون ويعملون باستقلال . ان المباديء لا يمكن توضيحها الا بمساعدة الامثلة ، لكن ما يصح بالنسبة الى حالة خاصة قد لا يصح بالنسبة الى حال أخرى . وبيانا لما أقصده سأضرب بعض الامثلة .

الفناء والرقص الشعبيان بصفتها من عناصر الشعور الثوري

لقد أكد لينين عن حق على أن الثوري يجب أن يولي اهتمامه لجميع ميادين الحياة . وينبغي أن نضيف أن عليه أيضا أن يطور وينمي الميل الثوري الخاص في كل ميدان . وإذا ما ذهب بنا الفكر الى الممثلين البروليتاريين والفرق الحمراء ، أمكن لنا أن نلاحظ – باستثناء بعض الاعمال الجيدة حقا – أن الامر لم يتعد حتى الان النقل الميكانيكي للشعارات النقابية الى الفن كأن يلتصق استلهام ثوري بشكل بورجوازي من اشكال الاغنية . لكن الدور الرئيسي للفنانين الثوريين هو العمل بما عملت به «السياسة الجنسية» في ميدانها : أعني المبادرة من الان ، وفي نطاق الرأسمالية ، الى تهيئة الميول والاشكال الثورية في ميدانهم الخاص بدءا من المادة والشكل القائمين الان .

ان هذا ممكن التنفيذ بدون طول باع في «العلم» ، وذلك عن طريق

دراسة الحياة بصورة غير متفرضة ، حرّة ، بلا آراء مسبقة ، وبالتالي ثورية . لقد شجع الحزب الشيوعي تأسيس مقاهي فنية حمراء حتى يطال عدداً أكبر من الناس ، حتى غير المسيسين منهم ، في الاجتماعات و يؤثر عليهم . وقد لوحظ بالمناسبة أنه كلما كان الأداء أكثر فنية و موسيقية وشعبية ، كانت الفاعلية أكبر ؛ وأنه على العكس كلما اقترب من الشكل البورجوازي بدا الشعار الثوري و كانه ملصوق لصقا ، وكانت النتيجة تافهة . لكن ليس في الامكان تأسيس عدد كافٍ من المقاهي الفنية الحمراء لاجتذاب السكان قاطبة إلى الاجتماعات . ويترتب على ذلك وجوب نقل الفن الثوري والشعور الثوري والإيقاع الثوري والنغم الثوري إلى حيث تعيش الجماهير وتعمل و تتألم . وهذا بكل تأكيد ممكן في الدول التي ما زالت ديمقراطية أو نصف فاشية ، كما أنه ما يزال ممكناً في الدول الفاشية الناجزة إذا أحسن اختيار الوسائل المناسبة . ففي وسع الموسيقيين والراقصين والمغنيين الثوريين أن يؤلفوا ببساطة الوسائل جماعات تضم فتياناً وفتيات وغلماناً ، بل راشدين أيضاً . و تستطيع هذه الجماعات أن تذهب ، على غرار مغني الشوارع ، إلى الساحات والأماكن العامة والتي كل مكان يمكن أن يتواجد فيه المثلون المقبولون للثورة . و تستطيع بمساعدة موسيقى شعبية جيدة ورقص شعبي وأغان شعبية ، هي في شكلها الراهن مناهضة للرأسمالية وقابلة للاستخدام لصالح الثورة ومتكيفة مع أحاسيس المضطهدين أو قابلة لأن تصبح كذلك ، أن تخلق وتنشر وترسخ عاطفياً ذلك الجو الذي نفتقر إليه أشد الافتقار لتحويل الجماهير الواسعة إلى جماهير متعاطفة مع الثورة . ولن يصعب على الامزجة البير وقراطية ان تفترض بهذا الاعتراض او بذلك على الاقتراح الذي صفتناه ، هذا اذا لم تؤكّد ان في ذلك «ابتعاداً عن الشيء الاساسي ، عن صراع الطبقات» . وانني لا جهل ما الصعوبات العينية التي يمكن الاصطدام بها هنا . ومن ينتظر وصفات جاهزة ،

فلن يحرك ساكنا أبدا . بيد أن مبدأ «السياسة الجنسية» يظل مع ذلك صحيحا بشكل أو باخر : لا بد من الفوز بالتأييد الفعلي من قبل الجماهير . لكن الرباط العاطفي يستوجب أن يعرف المرء ، مثله مثل الطفل ازاء امه التي تحمي وترشد ، أنه سيجد من يفهمه حتى في همومه ورغائبه السرية الدفينة ، بما فيها ، وعلى الاخص ، المضمار الجنسي الذي هو أبعد المضامير غورا وأكثرها سرية .

العمل العلمي الثوري

ينطوي العمل الجماهيري ، فيما ينطوي ، على البحث العلمي وعلى مقاطعة العلم البورجوازي في جميع الميادين ، لا في ميدان الاقتصاد السياسي وحده . ان العلم البورجوازي يهيمن على تكوين الايديولوجيا الاجتماعية ، ولاسيما ان المجالات المعنية هنا هي المجالات الاكثر قربا الى الحياة . يكفي ان نأخذ مثال ادب السياسة الجنسية (النظرية العرقية) . وسرعان ما يتجلى لنا اهمال العمل العلمي الثوري في الاقطاع التي هي على درجة راقية من الحضارة يجعل التأثير على الجماهير من جهة اولى اشد صعوبة ، ويضاعف الى حد كبير من جهة ثانية العراقبيل التي تعيق اعادة تنظيم المجتمع بعد انتصار الثورة الاجتماعية . ناهيك عن ان حل مشكلة العمل العلمي الثوري يعني الى حد كبير حل مشكلة المثقفين ايضا .

هنا ايضا ينبغي ، اذا كنا نريد اعادة بناء الحركة الثورية ، ان نشرع بايصال نمط العمل العلمي الثوري الذي كانت له الغلبة حتى الان . ولا يسعنا هنا بالطبع الا ان نصوغ مبدأ ، وسوى ان نشير الى بعض الواقع الهامة .

لقد جرى تطوير المنهج الماركسي للذاته من حيث أنه فلسفة ، وبصورة رئيسية في شكل مساجلات لا نهاية لها حول «الصدفة والضرورة» ، وليس في متناول فهم عامة الناس . وكتاب كورت ساورلاند عن «المادية الجدلية» الذي لاقى نجاحا هو آية في نوعه: فهو خليط من الشكلية الفلسفية والانتهازية الحزبية . وقد لبث البحث في ميدان علوم الطبيعة جنينيا ؛ أما في ميدان العلوم الاجتماعية فالحال أقل سوءا بنزير يسير . والحق انه لم يكن له قبل بمواجهة معرفة الباحثة البورجوازيين . وحتى مجلة «تحت راية الماركسية» التي كانت تهدف الى زرع العلم الماركسي وبنائه ، تبعت وتحجرت ، فيما عدا بعض الابحاث القيمة ، وغرقت في الخطاب الشكلي والجدل المجرد . فلم تكن تتطرق عن مواضيع يمكن ان تشعل فتيل النقاش ، وأن تسمع بالطرق الى المشكلات التي قتلها العلم البورجوازي بحثا ؛ وكان كل ما تفعله هو ان تضيف الى هذه المشكلات محض مجاهرة بالعقيدة الثورية . ان هذه النقطة الجوهرية . فلا مجال البتة للاكتفاء ، على الجبهة العلمية ، بالتملص من المهمة عن طريق الانحاء باللامة على الخصم لجهله بنظريه صراع الطبقات ، او عن طريق المجاهرة الدائبة بالانتماء الى الثورة بدلا من القيام بعمل فعلي .

ان علينا ان ندرس اولا بدقة ، قطاعا فقطاعا ، وضع العلم البورجوازي وبنيته بوجه عام . فالعلم البورجوازي مجزأ الى عدد لا يقع تحت حصر من الممارسات الفردية ، وهو يستخدم في الاشباع الفكري للنخبة او في تغذية التزعة الوصولية لدى رجال العلم من ذوي المرتبة الثانية . وغالبا ما يستعصي التفاهم على الباحثين حتى في الميدان الواحد . اضف الى ذلك ان العلم البورجوازي اكاديمي لا بلغته فحسب ، بل ايضا في اختياره لمواضيعه . لنقارن على سبيل المثال بين عدد الدراسات حول وضع النسيج المخي لدى المدمنين على الخمرة وبين عدد الدراسات

حول الظروف الاجتماعية التي تجعل من الانسان مدمدا على الخمرة . وكلما كان الميدان موضع البحث اكثر قربا الى الحياة ، كان العلم البورجوازي اكثر بعده عنها ، ومحض نتاج لنظريات فجة ، ولا هم له سوى التيه في خصومات حول هذه النظريات . نستطيع ان نقول اذن ان الرياضيات هي اقل العلوم تأثرا بالفكرة البورجوازية ، بينما لا يزال البحث في امراض السل عاجزا عن فهم تأثير الفداء الشعبي والسكنى البائسة على الرئة على الوجه الصحيح . أما علم الامراض النفسية ، الذي ما يزال الميدان المصطفى لضيق الافق الذي لا حدود له ، فلنقل ببساطة انه لا غرض له ، وهو الذي كان يفترض فيه ان يضع مباديء علم الصحة العقلية ، سوى ان يكون اداة مكرسة لتجعل هذا الهدف مستحيلا . فلنكتف بهذه الامثلة لنبين ان البحث الماركسي مطالب بأن يكون قادرنا على دخول المواجهة في ميدان المعرفة التجريبية الحالمة ، لا بغية تجاوز العلم البورجوازي حقا وفعلا فحسب ، بل ايضا وعلى الاخص كي يصبح قطب جذب للمثقفين والباحثين الشبان الذين سنتكون بأمس الحاجة اليهم بعد الثورة .

ليس في مقدور العلم الماركسي ان يتتطور بنقله شعار الصراع الطبقي الى العلم ، وباكتفائه بلصق بطاقة «الصراع الطبقي» . ليس في مقدوره أن يتطور الا انطلاقا من مسالية كل ميدان من ميدادين العلوم ، ومن مشكلاته ، ومن نتائجه . ولا بد من أن نبين بصورة ايجابية أين يخفق العلم البورجوازي ، **وماذا يخفق** ، وكيف تلعب الفلسفة البورجوازية دور العقبة المعيقة للمعرفة ، الخ... . وانما بعد ان نفعل ذلك ، وبعد ان تكون قد انجزناه ماديا ، يصير من حقنا ان نطلق على أنفسنا اسم العلماء الماركسيين وأن نعيين صلات مختلف العلوم بمشكلة صراع الطبقات على الصعيد الاقتصادي .

ليست هذه الآراء محض صيغ خاوية جوفاء ، وانما هي مبنية

على تجربة تطور الاقتصاد الجنسي (١) . ينبغي اذن أن نوضح على الصعيد المبدئي ، وبمساعدة هذه الحالة الخاصة ، المسألة الواسعة المتعلقة بالمساجلة العلمية بين البروليتاريا والبورجوازية . فهذه المسألة هي مدخل الى المشكلة العامة لمبادئ السياسة الثورية .

ان من يعرف نوع النقاش الدائر داخل العلم البورجوازي يدرك انه لا جدوى ولا طائل من الرغبة في القضاء عن طريق المناقشة على فكرة الخصم الخاطئة . فقد اكتشف فرويد ان الامراض العقلية هي عاقبة الكبت الجنسي . وترزح الدول الرأسمالية تحت وطأة عواقب الاقتصاد الجنسي البورجوازي ، بما تضمه من مستشفيات للمجانين ، ومن مؤسسات للمصابين بالامراض النفسية ، ومن هيئات للمساعدة . وقد قام مؤخرا واحداً من يحلو لهم المزاح بالهاء نفسه بالحساب التالي : فنظروا الى تزايد عدد المرضى العقليين في الولايات المتحدة الاميركية ، لن يعود في هذه البلاد سوى مرضى عقليين في غضون ٢٥٠ عاماً . وليس هذا بعيداً عن التصديق كما قد يبدو للوهلة الاولى . فحتى الاعوام الاخيرة كان ما يزال من المؤمل أن تفرض اكتشافات فرويد الثورية نفسها على علم الامراض النفسية ، وأن تحتل وبالتالي مكانة الصدارة مسألة الحماية من الامراض العصبية . ولو تم ذلك لكان الخطوة الاولى على طريق انصعال التصور الماركسي عن التصور البورجوازي في هذا المضمار ، من دون أن تلتفظ كلمة الماركسية مسبقاً . لكن علم الامراض النفسية لبّث على العكس على حاله ،

١ - للاقتصاد الجنسي معنيان في كتابات رايش : فهو بمعنى عام بنية الحياة الجنسية في شروط اجتماعية محددة ، وبمعنى أخص التحليل العلمي لهذه الشروط بمساعدة المنهج المادي - الجدلی .

واستمر في اداء دور الحماية الفكرية لتلك الفكرة التي لا معنى لها، فكرة «استعداد اصلي» تعود اليه علة الامراض العقلية . بل انه سجل ، فضلا عن ذلك ، انتصارات هامة على التحليل النفسي في عدد من النقاط الاساسية . وقد قال مؤخرا محلل نفسي لامع انه لا جدوى من تركيز الاهتمام على الحماية من الامراض العصبية ، وان الشيء الوحيد المطلوب هو الاهتمام بالعلاج الفردي . وهذا بدهي ، ما دامت مسألة الحماية من الامراض العصبية تقود الى مسألة النظام الجنسي البورجوازي باسره والى مسألة وجود الدين والاخلاق . وان لم الغباء الرغبة في محاربة اخطاء فرويد العلمية «من وجهة نظر ماركسية» عن طريق التنديد بـ«رجعيتها». وبال مقابل ، تكون قد انجزنا عملا ثوريا حقيقيا ومثمرا لو بينما بصورة ايجابية ما الذي يجعل من فرويد عالما عبقريا وما الذي يجعل منه فيلسوفا بورجوازيا من مدرسة قديمة كل القدم .

هل في وسعنا أن نأمل أن تجعل المناقشات العلمية كفة الميزان ترجع لصالح الثورة في الصراع على الجبهة العلمية ؟ هذا مستحيل . لكن هذا لا يعني أنه ينبغي من الآن فصاعدا أن نرفض كل نقاش ، بل ينبغي على العكس أن نخوض فيه وأن ننتزع الواقع الاستراتيجية في جميع المنظمات العلمية بواسطة عملنا الفعلي . ينبغي أن نتعلم عن طريق المناقشة لماذا وكيف يفكر الباحث البورجوازي تفكيرا خاطئا فيجيب عنه جوهر الامور . تلك هي الطريقة الوحيدة كي نتثقف . لكن المعركة الحقيقة تدور على صعيد آخر . لنعد الى مثال علم الجنس : فليس ثمة من طبيب نفسي بورجوازي من سوية متوسطة سيقبل بفكرة أن العصاب والذهان والهوس ، الخ، تأتى من اقتصاد جنسي فاسد نتن على نطاق الجماهير . وبال مقابل ، تولي الجماهير الواسعة كثيرا من الاهتمام لهذه المشكلات، وذلك بكل بساطة لأنها تعاني منها الامررين، ولأن البوس النفسي وغباء الأطباء النفسيين ، الذين هم ساسة

النظام الجنسي البورجوازي ، ينعكسان بصورة عينية في جسمها بالذات . ان لفي وسعي التوكيد بأن كل عامل شاب يفهم العلاقات بين الحرمان الجنسي والانهيار النفسي واضطرابات العمل على نحو افضل من غالبية الاطباء النفسيين في العالم قاطبة مجتمعين . وفي مستطاعنا ان نقول انه اذا توصلت الجماهير الى أن تحيى حياة صحيحة من خلال الاشباع الجنسي ، فان مسألة معرفة ما اذا كانت الامراض النفسية تعبّر عن اقتصاد جنسي مضطرب ستجد حلها من تلقاء نفسها ، حتى بالنسبة الى المدافعين عن الاخلاق البورجوازية داخل المعسكر الماركسي ، وألى الاطباء ورجال التربية الاشتراكيين الذين شوهدتهم الافكار البورجوازية والذين «يختيل اليهم أنهم لا يستطيعون أن يقبلوا بالتحليل النفسي» لأنهم لا يفهون فيه شيئاً . ان المبدأ الذي ينص على وجوب ضمان تفهم الجماهير على الدوام يسري مفعوله هنا أيضاً ، أي في المضمار المقدس للعلم الذي يزعم أنه لا يجوز مسه . ان «السياسة الجنسية» لا تدين بشعبيتها ولا تدين بالتفهم والقبول للذين لا قتهما لدى فئات واسعة من سكان ألمانيا والنمسا لتنظيمها ، وهذا ببساطة لأنه لم يكن لها من تنظيم . بل هي تدين بشعبيتها لمبدئها الذي ينص على ضرورة الطرح العلني لمشكلة الصحة الجنسية . وهذه كانت ببر وقراطية الحزب وستبقى عاجزة أمام «السياسة الجنسية» .

ان ما هو في غاية الصحة ، وبوجه خاص بالنسبة الى «السياسة الجنسية» ، ينطبق أيضاً على كل ضرب من العلم الطبي او غير الطبي ، وعلى سبيل المثال على دراسة مرض السل . والشرط الاول لذلك هو بالبداية الا يحمل العلم الشوري الى الجماهير الواسعة تصورات خاطئة ، بورجوازية ، الامر الذي لا يمكن الا ان يقدم يد العون للرجعية ، بل ان يبدأ بأن يوضع احساسه الخاص مبادئ علم مادي - جدلية تجريبي ، قبل أن يتوجه الى الجماهير . وغنى عن البيان ان الامتناع عن كل كلام خير من حمل

الشبيبة البروليتارية على اعتناق الفكرة البورجوازية التي ترى أن العلاقات الجنسية ضارة في فترة المراهقة مع اضافة عبارة : «تحي الثورة» .

ان للجماهير غريرة مدهشة ازاء الملاحظات والمعاينات الصائبة، وهي غريرة لا تبقى محتجبة عن الانظار الا يقدر ما لا يقدم لها الحزب الثوري اي مدد ، بينما يقدم لها الدجالون كل شيء ، ابتداء من الطاولات السحرية الى ينبوع بلدة لورد .

الخوف من الثورة

تريد الحركة الشيوعية - الثورية نفس ما تريده الحركة المسالمة البورجوازية الصغيرة : ابعاد شبح الحرب وحلول السلم على الارض . ويذعن التصور الثوري بحق أن هذا الهدف غير قابل للتحقيق الا عن طريق التصفية العنيفة للسيطرة الرأسمالية ، وعلى سبيل المثال عن طريق تحويل الحرب الامبرialisية الى حرب اهلية . وبالمقابل ترفض النزعنة السلمية الحرب الاهلية كما ترفض كل عنف ، من دون أن ترغب في الاعتراف بأنها تقدم بذلك ضمانة لإطالة عمر النظام المسبب للحروب . وترى الجماهير الواسعة اللاليساوية في الشيوعية «نصرة العنف» . والحال أن شعور الجماهير الواسعة حاسم ؛ فهي تخشى العنف ، وترغب في السلم والطمأنينة ، ولا تريد بالتالي أن تسمع بالشيوعية . وليس في الامكان التخلص عن نظرية الاستيلاء على السلطة بالعنف ، لكن بات من الواضح انه ليس في الامكان حمل الجماهير الواسعة على القبول بها . ولقد كانت احدىقوى الكبرى للحركة القومية - الاشتراكية انها استدرجت الجماهير واجتذبتها لا بمجرد التلويح بسراب «ثورة المانية» ، بل ايضا باعطائها وعدا باستيلاء غير عنيف

على السلطة . كانت الحركة القومية - الاشتراكية تأخذ اذن بعين الاعتبار عاطفة الجماهير الثورية وعطفتها المسالمة في آن واحد ، وان بصورة غير واعية البتة بالطبع . يكفي اذن ان نطرح سؤالين لحل هذا التناقض . السؤال الاول يتعلق بالطريقة التي تتصور بها الجماهير العنف وتمثله ؟ وتبين التجربة أنها مسالمه وأنها تخاف من العنف . أما السؤال الثاني فيتناول علاقة ضرورة استعمال العنف ب موقف الجماهير منه . والجواب على هذين السؤالين ليس ولا يمكن ان يكون الا الجواب التالي : **كلما كانت القاعدة الجماهيرية للحركة الثورية اوسع ، تضاءلت ضرورة استعمال العنف ،** وتضاءل خوف الجماهير من الثورة . كذلك كلما كان التأثير الثوري اكبر في الجيش وفي جهاز الدولة ، كانت ضرورة العنف اقل . ولهذا تمت الثورة الروسية باقل قدر ممكن من سفك الدماء . وتدخل الامبراليين هو وحده الذي أدى الى حمام الدم . ولقد كان **واضحا للجميع** ان المسؤلية التاريخية تقع على عاتق الامبراليين وعلى عاتق ما تبقى من الحرس الابيض . لكن وساعة القاعدة الجماهيرية منوطة بقدرة الحزب الثوري على ان يتكلم لغة جميع فئات الشعب الكادحة ، وعلى ان يعبر صحيح التعبير عن رغائبه وافكارها الثورية . وهذا يتطلب ممارسة واعية لعلم نفس الجماهير . واذا ما اعترض هنا «معترض مبدئي» ، كما جرت العادة ، بالقول بأن الثورة الروسية انتصرت بلا سياسة جنسية ولا علم نفسي جماهيري ، فاننا سنجيب بلا تردد ان الفلاحين الروس ما كانوا بدورهم متبرجزين تبرجز الفلاحين الاميركيين ، وان البروليتاريا الروسية ما كانت بدورها متبرجة تبرجز البروليتاريا الانكليزية ، وان لينين ، اعظم عالم نفس جماهيري على مر الا زمان ، كان هو الذي يقود الثورة الروسية .

وكي نعود الى مسألة القاعدة الجماهيرية للثورة ، لتأخذ مثلا ثانيا ، اكثرا عينية من سابقه .

الشرطـي كـانـسان وكمـامـور دـولـة

كانت تتعلـج الشرطة الـالمـانـيـة تـناـقـضـات ظـاهـرـة . وـكانـ الحـزـبـ الشـيـوـعـيـ الـالـمـانـيـ يـصـبـ جـامـ غـضـبـهـ فيـ الصـفـحـ علىـ «ـصـفـارـ الزـوـرـغـيـلـيـنـ»^{١)} وـ«ـالـعـصـابـاتـ الـبـولـيـسـيـةـ»ـالـخـ . وـكانـ ذـلـكـ نـاجـماـ بـصـورـةـ مـنـطـقـيـةـ عـنـ نـظـرـيـةـ الاـشـتـراـكـيـةـ الفـاشـيـةـ . صـحـيـحـ أنـ الغـضـبـ عـلـىـ الشـرـطـةـ كـانـ لـهـ ماـ يـبـرـرـهـ ، لـانـهـ كـانـتـ تـهـاجـمـ الـمـتـظـاهـرـيـنـ وـتـطـلقـ عـلـيـهـمـ الرـصـاصـ باـسـتـمـارـ . لـكـنـ لاـ يـجـوزـ لـلـقـيـادـةـ الـثـورـيـةـ أـنـ تـرـخيـ لـنـفـسـهاـ عـنـانـ مشـاعـرـ الغـضـبـ ، حـتـىـ وـلـوـ كـانـتـ مـبـرـرـةـ ، وـأـنـ تـتـجـاهـلـ بـالـتـالـيـ أـنـ آـيـةـ اـنـتـفـاضـةـ لـنـ يـكـتبـ لـهـاـ النـجـاحـ بـدـوـنـ تعـاطـفـ وـتـأـيـيدـ فـعـالـ مـنـ جـانـبـ الـقـسـمـ الـأـكـبـرـ مـنـ الشـرـطـةـ ، أـللـهـمـ إـذـاـ رـافـقـهـاـ سـفـكـ لـلـدـمـاءـ لـاـ يـصـدـقـ . وـهـذـاـ يـصـحـ أـيـضاـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـجـيـشـ . وـلـاـ يـجـوزـ لـلـقـيـادـةـ أـنـ تـنـسـيـ أـبـداـ أـنـ مـوـظـفـ الشـرـطـةـ وـالـعـسـكـرـيـ هـمـاـ مـنـ أـبـنـاءـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـنـ اوـ الـفـلاـحـيـنـ اوـ الـمـسـتـخـدـمـيـنـ الخـ . . . وـبـدـلاـ مـنـ أـنـ تـرـكـ مشـاعـرـ الغـضـبـ وـالـحـنـقـ تـسـتـولـيـ عـلـيـهـاـ يـجـدرـ بـهـاـ اـنـ تـسـأـلـ عـمـاـ يـجـريـ فـيـ نـفـسـ الشـرـطـيـ وـالـجـنـديـ الـمـتوـسـطـيـنـ حـتـىـ يـمـكـنـهـمـاـ اـنـفـصـالـ عـنـ طـبـقـتـهـمـاـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ . لـسـتـ اـدـرـيـ اـنـ كـانـتـ الخطـوـطـ الـعـرـيـضـةـ التـالـيـةـ صـحـيـحةـ كـلـ الصـحـةـ ، اوـ لـاـ . لـكـنـ لـنـتـصـورـ الشـرـطـيـ ، الـذـيـ تـحـيطـ بـهـ هـالـةـ مـنـ الـهـيـبـةـ وـهـوـ يـمـتـطـيـ صـهـوـةـ جـوـادـهـ وـيـعـتـمـرـ خـوـذـتـهـ وـيـمـتـشـقـ سـلاـحـهـ ، لـنـتـصـورـهـ وـقـدـ رـجـعـ إـلـىـ بـيـتـهـ ، إـلـىـ وـمـطـهـ الـعـائـلـيـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـ بـصـفـتـهـ أـخـاـ اوـ زـوـجـاـ اوـ أـبـاـ ، بلـ لـنـتـصـورـهـ وـهـوـ فـيـ الـفـرـاشـ اوـ حـتـىـ فـيـ ثـيـابـهـ الدـاخـلـيـةـ ! اـنـهـ يـرـىـ إـلـىـ نـفـسـهـ فـيـ الشـارـعـ وـكـانـهـ (ـالـدـولـةـ)ـ ، وـالـفـتـيـاتـ الصـفـيرـاتـ الـبـرـوـلـيـتـارـيـاتـ يـؤـدـينـ

١ - اـيمـيلـوسـ زـورـغـيـلـ : مدـيرـ بـولـيـسـ الـمـانـيـ مـشـفـوـمـ السـمعـةـ .

بصورة آلية حركة تدل على التمجيل والتوقير أمام حارس الامن ، لأن أمهاطهن كن يهددنهم باستدعائه اذا «أسأن السلوك» ، اي اذا عصين الاوامر ولا مسنن أعضاءهن الجنسية ، الخ... ان الشعور الذي يخالج الشرطي هو اذن الشعور بأنه حارس النظام ، ومن هنا نجده يكبر في عين نفسه . وهذا هو الجانب الرجعي فيه . لكنه في البيت والثكنة أجبر بسيط يرتدي بزة مرقمة ، وخدم للرأسماليين محكوم عليه بالطاعة الدائمة . وهذا التناقض ، بين جملة من تناقضات أخرى كثيرة ، هو الحاسم بالنسبة الى الكفاح الشوري .

لقد كان معظم رجال الشرطة البروسية من الاشتراكيين - الديموقرطيين . وفي الاسابيع التي استولى فيها هتلر على السلطة قام الكثيرون منهم بحماية الشيوعيين وغيرهم من الاشتراكيين الذين كانت تلاحقهم قوات «الحرس الشخصي» . ويستطيع تحريض ثوري منطقى ، متماسك ، عقلاني ، ذكي ، ان يجد حلا بدون لجنة كبيرة للتناقض المستوطن في نفس الشرطي . ولنذكر بأنه ليس عندنا وصفات جاهزة تقدمها ، وإنما فقط منهج في التحليل .

اليمك مثلا على ما لا يجوز عمله : حين سلمت حكومة بابن مقايد السلطة في تموز ١٩٣٢ اتخذت واحدا من اوائل قراراتها بتحظير الزيارات النسوية الى ثكنات الشرطة ، هذه الزيارات التي كانت مسموحا بها حتى ذلك اليوم . كانت الامزجة غاضبة اذن . وكان المناضلون في المنظمات القاعدية يتناهى الى اسماعهم من هنا وهناك أن الشبان من رجال الشرطة يتفوهون بما يلي : «كثيرا ما ترکناهم يفعلون بنا ما يشاؤون من دون أن نحتاج : فقد انقصت اجرورنا ، وزيدت أوقات خدمتنا الى حد لا يطاق ، الخ... لكننا لن ندعهم يحرمون علينا النساء» . وقد بادرت «السياسة الجنسية» على الفور الى اعلام اللجنة المركزية بذلك، وأسدت اليها

النصح بأن تأخذ بعين الاعتبار تلك الحالة النفسية، وبأن تدافع علينا عن صالح رجال الشرطة . لكنها لم تشا أن تسمع شيئاً من ذلك . ولقد كان تقديرها بلا ريب أن ذلك لا دخل له بصراع الطبقات . ولقد أثبتت التجربة أن الحالة النفسية المعادية للعمال تتلاشى وتزول سريعاً حيثما تردد رجال الشرطة على مرايا الإرشاد التي يشرف عليها أطباء «السياسة الجنسية» . بيد أن اللجنة المركزية أبىت أن تطلع على هذه الواقع لأنها لا تدخل في باب «السياسة العليا» . لكن هذه الواقع نفسها تبين على نحو لا يقبل الدحض أنه من المستحيل الوصول إلى مختلف فئات السكان والتأثير عليها عن طريق المسائل السياسية المجردة ، وأن الواجب يقضي بشرح السياسة انطلاقاً من حاجات الجماهير ومشاغلها .

إذا رفضنا أن نعير انتباها للجوانب التفصيلية ، التي قد تبدو ثانية وعارضه ، في حياة الجماهير ، فلن تصدق الجماهير - وستكون على حق - أنها ستفهمها حين سنستلم مقايد السلطة . لقد أقلّ مرة صديق لـ «السياسة الجنسية» عاملين مبتدئين في سيارته ، أثناء رحلة له . كانوا شابين بروليتاريين حقيقيين ، لم يبلغا بعد سن الاقتراع ، المرتفع بما فيه الكفاية في البلد المعني . كانوا يجدان الاشتراكية ، لكنهما أضافا قائلين أنهما لا يرغبان في الاهتمام بالسياسة ، بل يترکانها عن طيبة خاطر رئيس المجلس الاشتراكي - الديموقراطي الموقر ، كما يتخليان له عن طيبة خاطر أيضاً عن حقهما في الاقتراع شريطة أن يترك لهما الفتىـات الجميلات اللاتي يصادفانهن في أسفارهما . وقد أكد الرواـي أنهما ما كانوا من المتسكعين أو المشردين ، بل كانوا من نمط متوسط من الشفيلة الشباب ، تملؤـهما الحيوية . ومن يرفض في هذه الحال أن يغير اذنا صافية ، وأن يفهم هذه الأمور ، وأن يستخلص منها درساً ، فحالته ميئوس منها .

لقد هدم جنود من أصل عمالي وفلاحي في النمسا بطلقات

النار منازل العمال وقتلوا المئات من رفاقهم الطبيفين . ولم نعثر في أي صحفة او في أي تقرير على ادنى اثر لمسألة معرفة كيف امكن لذلك أن يحدث وما سبل معالجته وتلافيه ، مع انه على هذا السؤال وعلى الرد الذي يمكن ان نجده له يتوقف الجواب على «المسألة الاستراتيجية الكبرى» ، مسألة معرفة ما اذا كان في الامكان في الوضع الراهن لتسليح جهاز الدولة ان تحدث اتفاضاً وان يحدث قتال شوارع وكيف ؟ هذا هو لب الموضوع . وبدلا من ان يتراشق أولئك الذين يسمون أنفسهم بأنهم مرشدو البروليتاريا وأداؤها التهم والشتائم ويصفوا بعضهم بعضا بـ «خونة الطبقة العاملة» ، وهذا امر لا طائل فيه ولا جدوى لانه ما من احد اعلم من غيره بهذه الامور ، اقول : بدلا من ذلك يجدر بهم ان يبدؤوا بطرح تلك الاسئلة ، وبفهم أولئك الجنود ، حتى يتعلموا كيف يمكن ان يكون لهم تأثير ونفوذ في الجيش والشرطة .

تطوير السياسة الثورية انطلاقاً من حاجات السكان

انباء مناقشة دارت بين ممثل «السياسة الجنسية» وممثل اللجنة المركزية ، بييك ، في عام ١٩٣٢ ، شرح هذا الاخير ان التصورات المتضمنة في « هجمة الاخلاق الجنسية » (١) تناقض تصورات الحزب والماركسية . وحين طلب اليه أن يبرر كلامه قال : «انت تطلقون من الاستهلاك ، ونحن من الانتاج ؟ لستم اذن من الماركسيين ». وسأل ممثل «السياسة الجنسية» هل الحاجات

في خدمة الانتاج أم ان الانتاج على العكس لا يتجاوب مع الحاجات . ولم يفهم بييك هذا السؤال . وانما بعد انصرام عاملين كاملين تبين للعيان بوضوح أين يكمن الفرق : فالنزعه الاقتصادية بنت عملها كله ودعایتها كلها على الجانب الموضوعي من الحياة الاجتماعية ، أي على تقدم القوى الانتاجية ، والتناحرات الاقتصادية بين الدول ، وتفوق التخطيط السوفيatic على الفوضى الرأسمالية ، الخ ، و«أعادت ربط هذه السياسة الكبرى بالحاجات اليومية» ، بيد أن هذا النوع من الرابط ادى الى فشل ذريع . وبال مقابل ، شرحت «السياسة الجنسية» مطالب الثورة الاجتماعية بدءا من الحاجات الذاتية ، واستنبطت جميع المشكلات السياسية من مشكلة معرفة ما الحاجات التي ينبغي تلبيتها لدى الجماهير وكيف السبيل الى ذلك ، فأثارت بذلك اهتماما حادا لدى الناس الاكثر لاتسیسا في جميع الاوساط . ولا يتجلی هنا الفرق المبدئي بين العمل الثوري الحي وبين «مارکسية» الحزب الدوغمائية والمدرسية فحسب ، بل ايضا السبب الذي حال بين خيرة المسؤولين ، «المأخذين في دوامة» السياسة العليا ، وبين فهم الطريقة التي تطرح بها «السياسة الجنسية» المشكلات والمعضلات . صحيح ان العديد من المسؤولين في الكومنترن يحسون بهذه الشفرة في عملهم ، لكنهم لا يتوصلون مع ذلك الى تحديد روابط السياسة العينية بحاجات الجماهير . هكذا قال مانويلسكي في تقريره الى الدورة السابعة عشرة للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيatic حول «نضج الازمة الثورية» (القسم الثالث ، «وضع فروع الكومنترن» ، نقلاب عن «راند شو» ، العدد ١٦ ، ص ٥٨٦) : «لتأخذ مثال اهمية الشبيبة الشيوعية . فقد كانت اهمية الشبيبة طوال سنتين عديدة ، بقيادة الكومنترن ، جيلا رائعا من البلاشفة الشبان الذين برهنوا اكثر من مرة على تفانيهم الذي لا يعرف حدودا للقضية الشيوعية . لكنها لم تتمكن من تصabil

جذورها عميقا في جمارة الشبيبة العاملة . كما ان الاشتراكية -
الديمقراطية لا تطال بدورها هذه الشبيبة . ان الشبيبة في
البلدان الرأسمالية محصورة بالماليين في المنظمات الرياضية التي
أنشأتها البورجوازية وهيئات اركانها وخواتتها . وفي المانيا شق
شطر من الشبيبة العاطلة عن العمل طريقه الى التكتنات الفاشية .
لكن اعضاء «اتحاد الشبيبة الشيوعية» لم يفهموا البتة هذا المذهب
كامل الفهم . فقد ناضلوا بشجاعة ضد الفاشيين في المانيا . وفي
العديد من الاقطارات قاموا بعمل جيد في الجيش ، وحصلوا بسبب
ذلك مدة طويلة من السجن . لكن ان يجدوا لأنفسهم موطئ قدم
في منظمة رياضية كاثوليكية على سبيل المثال ، تضم عشرات
الالوف من الشفيلة الشبان ، فهذا امر يصعب عليهم بنفس الدرجة
التي يصعب بها على البابا ان ينضم الى «رابطة الملحدين» ليقوم
فيها بالدعایة للكاثوليكية . ييد ان اعضاء «اتحاد الشبيبة الشيوعية»
والشيوعيين لا تردهم اعتبارات الوفار والهيبية ، كما هو شأن
الحبر الاعظم . ان من واجب المنظمات الشيوعية و«اتحاد الشبيبة
الشيوعية» ان تكون على درجة كافية من المرونة: فعليها ان تتواجد
حيثما وجد شفيلة ، وعليها ان تكون حاضرة في المنظمات الرياضية ،
وفي منظمات اوقات الفراغ مثل «دو بولافورو» في ايطاليا ، وفي
معسكرات العمل المدني ، لكن عليها قبل كل شيء ان تكون
متواجدة في المنشآت والمشاريع» .

هذا صحيح مطلق الصحة ، لكنه يفتقر الى ما هو اساسي .
فالشاب المنتسب الى «اتحاد الشبيبة الشيوعية» والعامل في
المنظمات المسيحية أعزل تماما في مواجهة المسيحي الشاب اذا كان
سلامه الوحيد التحاليل الاقتصادية - السياسية التي تقدمها له
«اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية» . والحق انه لا بد له من ان
يعرف ما ينبغي ان يتكلم عنه الى المسيحي الشاب وما الحلول التي
تقدمها الشيوعية ، لا مشكلات الاقتصاد ، وانما قبل كل شيء

للمساغل الخاصة التي تأسر اهتمام المسيحي الشاب . وانما بدءاً من هذه المساغل ينبغي ان نستنتج رويداً رويداً ضرورة تخطيط اشتراكي كأساس لحل المساغل الشخصية . وعليه ، تتفق «السياسة الجنسية» من حيث المبدأ مع مانويليسكي حول هذه المشكلة التنظيمية الداخلية . لكن الفروق تصبج جسيمة ما ان نصل الى المسائل العينية ، الى ما يأسر اهتمام الشاب ، سواء أكان مسيحياناً أم غير مسيحي ، الى التجربة المعاشرة العينية التي يتوجب على الشاب العضو في «اتحاد الشباب الشيوعية» ان يطور عمله ونشاطه بدءاً منها . وفي مقدورنا ان نقول الشيء عينه عن جميع التعليمات والتوجيهات الشكلية الصادرة عن قيادة الكومنtern . فهذه الاخرية تقول بحق انه من الواجب القيام بعمل جماهيري ، لكنها تعرّض على المضامين العينية للعمل الجماهيري المطلوب انجازه ، ومعارضتها تتزايد حدة طرداً مع ابعاد هذه المضامين عن السياسة العليا واقترابها مما يحظى باهتمام الاشخاص . وهي تتصادر مبدئياً على ان القضايا الشخصية والقضايا السياسية على طرف في تقىض ، من دون ان تتبين علاقتهما الجدلية . والحال اننا لا نستطيع ان نقول فحسب ان هناك مشكلات ذات طابع شخصي هي في الوقت نفسه مشكلات نمطية، نموذجية ، على صعيد النظام الاجتماعي ، كمشكلة البحث عن الشريك الجنسي او مشكلة السكن بالنسبة الى الشبان على سبيل المثال ، بل ينبغي ان نضيف ان السياسة عينها بوجه عام لا تعدو ان تكون تعبيراً عن تداخل مصالح مختلف الفئات الاجتماعية وطبقات الاعمار في المجتمع وتざرعاها .

باختصار ، تتميز السياسة الثورية عن كل ضرب من السياسة البورجوازية بوضعها السياسة في خدمة تلبية حاجات الجماهير ، بينما تبني البورجوازية سياستها كلها على الزهد والتنازل الملقنين للجماهير على مدى التاريخ .

يعلم من عمل في الخلايا الشيوعية كيف تكون ردود أفعال اعضاء الحزب انفسهم على «السياسة العليا» . فقد جرت العادة على تقديم تقرير سياسي في الاجتماعات الأسبوعية . فكان واحد من «المقررين» يعرض بقدر او باخر من التوفيق سياسة ال硼جوازية ، بينما يصفى الاعضاء بقدر او باخر من الاهتمام ، ولكن على الدوام بصورة سلبية . ولم تكن لتدور مناقشات الا في الخلايا المؤلفة من غالبية من المثقفين او من الكوادر المحنكة التي انقضى زمن طويل على تمرسها ، فتطرح على بساط البحث مسائل السياسة العليا . وفي الشهور السابقة لتنسم هتلر السلطة تضاعفت الحالات التي كان فيها البروليتاريون من اعضاء الخلايا ، من ليس لهم بالطبع باع طويلا في السياسة العليا ، ولكن ممن كانوا يدركون ان ثمة شيئا تلوح نذرته في الافق ، يبادرون الى مقاطعة التقارير السياسية التي لا طائل فيها والى القول بكل حزم : «لقد استمعنا طوال سنتين وستين الى تقاريركم عما تريدون الborجوازية وعما تفعله . وفي ودنا الان لو نسمع ما ينبغي علينا عمله وما نوع السياسة التي يتوجب علينا انتهاجها» . وما كان لدى المقررين ما يستطيعون الادلاء به حول هذا الموضوع . ولما كان النجاح الذي يحرزه خطباء «السياسة الجنسية» ، الذين كانوا يعرفون كيف يشرون اهتمام الحزب واللامنظمين بالسياسة بمعالجتهم المشكلات السياسية انطلاقا من الحاجات والهموم الشخصية ، اقول : لما كان هذا النجاح قد بدأ تعم أنباؤه في بعض الاحياء ، فقد بادرت بعض كوادر الحزب الى الاتصال بـ «السياسة الجنسية» لتزودها بمقررين ، وذلك رغبة منها في اجتذاب «اللامنظمين» الى الاجتماعات المسائية . وكانت الدعاية في اوساط النساء والشبيبة تمنى بالفشل في كل مكان ، لأن الكلام عينه كان يردد باستمرار حول «الوضع السياسي» ، فلا يخلف وراءه غير السام ذاته . وبالمقابل ، كان خطباء «السياسة

الجنسية» متمرسين على اعطاء الاولوية لمعالجة المشاغل الشخصية للمرأة والراهق والعاطل عن العمل الخ . . . وكانت المواقف التي تطرح على بساط البحث غير ذات طابع سياسي ، وعلى سبيل المثال : «كيف أربى طفل؟» او بالنسبة الى الشبان : «الفتيان والفتيات في التنظيم» . وكانت كل مناقشة لمسألة تتعلق بالحياة الشخصية تثير اهتماماً كبيراً ومساهمة حية من قبل الحضور ، وتقود بانتظام الى المسائل السياسية الكبرى التي ما كانت الا تخنق العاطفة الثورية لو تلبست شكلاً آخر . وبدلاً من أن تمارس «السياسة الجنسية» «السياسة العليا» زاعمة أنها «تعيد ربطها بالحاجات اليومية» ، نافية هذه الاختلاف في الحقيقة والواقع ، اتخدلت لنفسها قاعدة وهي الا تنطلق أبداً الا من المشكلات الشخصية لتصل من ثم الى سياسة هتلر وبرونينغ على سبيل المثال . ونظراً الى ان هذا المنهج يقوم على بلوغ المعضلات الكبرى للسياسة الطبقية انطلاقاً مما هو شخصي ، بدلاً من ان يحبس نفسه في السياسة العليا ، فقد أطلق عليه ممثلو الحزب اسم «الانحرافية المناهضة للثورة» . لكن كواحدهم لجأت اليها وطلبت مساعدتنا في اورانيبرغ وجوتبرغ ودرسدن وفرانكفورت وستيفليتز وشتيتين الخ ، وذلك للتاثير على «اللامنظمين» واجتذابهم . وقد امكن لـ «السياسة الجنسية» ان تجمع العشرات من الاشخاص في المنشآت الكبيرة المصابة بعدوى القومية - الاشتراكية والموصودة الابواب منذ سنوات دون النقابات الحمراء ، وذلك بمجرد اعلانها عن المواقف التي ستناقش في الاجتماعات ، كما امكن لها ان تنفتح الحياة في نشاط الخلية وأن تثير اهتمام النساء والراهقين غير المسيسين . بيد ان حركة «السياسة الجنسية» كانت فتية وفي غاية الضعف ، وقد وضعتها قيادة الحزب موضع ريبة وشك ، ثم حظرتها . الواقع ان ما عدته قيادة الحزب انحرافاً عن

السياسة وما وصفته بالرجعية كان هو هو الدعاية الثورية الحقة . والبرهان على ذلك يتمثل في الاهتمام الذي بات الافراد غير المسيئين يولونه في خاتمة المطاف للسياسة .

لا تستطيع اي منظمة ثورية ان تنتزع لواء النصر بدون تسييس ثوري للجماهير التي لا تكتفى بالسياسة العليا من حيث انها سياسة عليا . ولم تكن الاعمال المسماة بالثورية ، والتي كانت تترك الجماهير بقدر او باخر على لامبالاتها ، الا محاولات لـ «تعبيئة» الجماهير عن طريق المثال والقدوة . ولقد كان مآلها الفشل في معظم الاحوال .

ان التجارب التي قامت بها «السياسة الجنسية» في المانيا قابلة للنقل الى كل ميدان من ميادين السياسة الثورية . فلن يكتب لاحد النجاح في تسييس الجماهير اللامبالية اذا اكتفى بأن يضرب المثل او بأن يطلق نداءات خاطئة بسيكلولوجيا «الى شفيلة العالم قاطبة» . وحتى تحول الجماهير الى الايجابية والفاعلية سياسيا ، فلا بد ان تطرح على نفسها **السؤال الجوهري** في السياسة الثورية : «ماذا نريد ؟ وكيف سنحصل عليه ؟». واذا صر - ونحن لا يخامرنا ريب بذلك - ان الثورة الاجتماعية تحقق مشروع ديموقراطية اجتماعية ، اي تشرك اشراكا فعليا جميع السكان في السياسة ، في السياسة الثورية لا في المناورات الدبلوماسية البورجوازية ، اذا صر انها لا تكتفى بـ «اثارة اهتمام» الجماهير الواسعة بتنظيم الحياة الاجتماعية بل تعهد اليها ايضا بجوهر هذه المهمة ، ترتب على ذلك بالضرورة ان العمل الثوري يستلزم بعض المبادئ التي لا يمكن هنا رسم معالمها العريضة الا بواسطة الامثلة . ونحن لا نزعم اننا نحيط بجميع جوانب المسالة عن طريق هذه الامثلة ، ولكن هدفنا ان نبين انه يمكن ، وكيف يمكن ، ان نوقف نشاط الجماهير الكامن .

من الواضح انه لا يمكن ابدا لايota قيادة ثورية ان تتوقع وتوجه جميع المهام وجميع المضلات التي تشيرها الحياة الاجتماعية . والدكتاتورية البورجوازية هي وحدها التي تفعل ذلك ، لأنها لا تقيم وزنا لاحتاجات الجماهير ، ولأنها تقوم أساسا على القبول الظاهري من جانب الجماهير وعلى خمولها السياسي الفعلي . ولقد أمسى العمل مشركاً منذ زمن طويل في ظل النظام الرأسمالي القائم ، في حين ان تملك منتجات العمل هو الذي لا يزال مسألة شخصية خاصة برب العمل .

وتحضر الثورة الاجتماعية نصب عينيها ، في ما تضع ، تشيرك المنشآت والمشاريع الكبيرة ، اي العهد بها الى تسخير الشغيلة الذاتي . ونحن نعلم ما الصعوبات التي اعترضت سبيل الاتحاد السوفيائي في البداية والتي لا تزال تعترضه الى اليوم في مسألة التسيير الذاتي . فالعمل الثوري في المنشآت لا يمكن ان يفلح الا اذا يحظى اهتمام الشغيل بالمنشأة في شكل اهتمام فعلي بالانتاج ، والا اذا اعتمد كلی الاعتماد على هذا الاهتمام . لكن ليس للشغيل من اهتمام بالمنشأة من حيث انها منشأة ، وليس له بوجه خاص من اهتمام بالمنشأة في شكلها الراهن . وحتى يخامره هذا الاهتمام الثوري في اقرب اجل ، فلا بد ان يبدأ من الان ، في ظل الرأسمالية بالذات ، بان يتصور بان المنشآة تخصه وتعود اليه . من الضروري اذن ان يعي الجهاز العامل ان المنشآة وإدارتها هما من اختصاصه وحده دون غيره ، على اساس عمله ، وأن هذا الحق ، الذي يدعوه الرأسمالي لنفسه في الوقت الراهن ، يقترب بعدد من الواجبات ، وفي مقدمتها واجب الاطلاع على تسيير المنشآة وتنظيم المنشآة ، الخ ، اذا كان يريد ان يكون السيد في بيته . وعلى الدعاية ان تظهر بوضوح ان السيد الحقيقي للمنشآة

ليس المالك الحالي للرأسمال ولوسائل الانتاج ، وإنما العمال .
وتحت فرق كبير من وجهة النظر البسيكولوجية بين القول : «نحن
نصدر ملكية كبار الرأسماليين» وبين القول : «نحن نضع يدنا على
ملكينا المنشورة» . في الحالة الاولى يأتي رد فعل العامل ، سواء
أكان مسيسا أم غير مسيس ، تجاه شعار المصادر في شكل حرج
وشعور بالإثم ، كما لو أنه يمتلك ملكية الغير ؛ وفي الحالة الثانية
يعي شرعية حقه في الملكية ، المبنية على عمله ، ولا يعود من تأثير
على الجماهير للايديولوجيا البورجوازية التي تؤكد «عدم جواز
المساس بالملكية الخاصة» لوسائل الانتاج . ذلك أن المعضلة
الحقيقية ليست تبشير الطبقة السائدة بهذه الايديولوجيا ، بل
تلغل هذه الاخرية في الجماهير وتمكنها منها وارتضاء الجماهير بها .
ليس من واجب التنظيم الثوري ، كل تنظيم ثوري ، ان
يفهم الجهاز العامل في المنشأة بأنه هو سيدها المشروع ، وأن
عليه أن يهتم من الان بمهامها ؟ وكما كانت المستخدمات
البورجوازيات الصغيرات والعاملات يسعين ، في اجتماعيات
«السياسة الجنسية» ، الى ان يفهمن كيف يمكنهن ان يرببن اطفالهن
على خير وجه ، وكيف ينظمن العمل المنزلي ، وكما كان يتسائلن
عما اذا لم يكن من الافضل تنظيم مطبخ جماعي في كل شبكة من
المساكن ، كذلك يستطيع العاملون في المنشآت ويتووجب عليهم من
الان اعداد العدة لأخذ مسؤولية المنشأة على عاتقهم . ان عليهم ،
بالاعتماد على وسائلهم الذاتية ، ان يقيّموا ويتعلّموا ويفهّموا كل ما
هو ضروري لتحقيق ذلك ، وأفضل الطرق الى تحقيق ذلك . ومن
الممكن لتجربة السوفيات ان تساعدهم في هذا المضمار ، لكن
ليس لها ان تفنيهم عن عملهم وأن تحل محله ، لأن الوضع
والإمكانيات مختلفة . ولا مجال البتة للشك في ان هذه هي
الطريقة الوحيدة التي يمكن ان تحمل المستخدمين على الاهتمام
بمسألة الثورة الاجتماعية ، لا عن طريق تقارير متعلمة عن الوضع

السياسي والخطة الخمسية . ومن الضروري ان يسبق الممارسة الفعلية للسلطة من قبل العاملين في المنشآت استيلاء بالفكر عليها عن طريق اعداد عيني . وهذا ينطبق على كل منظمة للشبيبة ، وعلى كل منظمة رياضية ، وعلى كل منظمة عسكرية . وهذا وحده ، ما يدعى «ايقاظ الوعي الطبقي» . فليس من الممكن ان يكون للقيادة الثورية من مهمة اخرى سوى التوضيح التام ، قبل استلام السلطة، لتلك المراحل الاولى من **الديمقراطية الاجتماعية** **الثورية** ، وتسديد خطى الاستعدادات ، والموازرة بمعرفة اوسع وأشمل . وحين ينخرط الشغيل في العمل العيني على هذا النحو، يشعر حق الشعور بأنه سيد المنشأة ، ولا يعود يرى في رب العمل واهبا للاجر بل مستغلا لقوة عمله . واذا كان المفروض بالقيادي الثوري ان يعلم ما فضل القيمة ، فان على الشغيل بدوره ان يعلم بدقة ما الربح الذي يجنيه رب العمل من عمله . **ذلك هو الوعي الطبقي** . واذا ما أضرب الشغيل في هذه الحال ، فسيكون قد فعل ذلك ، لا بداعف التضامن العاطفي وحده ، ولا بداعف الاخلاص للقادة النقابيين وحده ، وانما في **سبيل مصالحة الذاتية** ، ولن يكون في مقدور اي مسؤول نقابي من الان فصاعدا ان يخونه . انه سيناضل في سبيل مصالحة بالذات ، بل انه ، فضلا عن ذلك، سيفرض الاضراب على القيادات المتخاذلة ، وسيتحجها جانيا اذا لم تسایر الحركة . ان الدعاية الثورية لم تكن حتى الان الا نقدا سالبا ، وعليها ان تتعلم ايضا كيف تكون بناءة ، ثقافية ، ايجابية . ونفس هذا المبدأ القائم على اساس الوعي العملي يصبح بالنسبة الى الشبيبة من مختلف الاوساط . فإذا كانت الشبيبة تعمل في المنشآت ، فستشارك في العمل النقابي العيني ؟ واذا كانت لا تعمل فانها ستولي اهتماما لتنظيم الحياة الشخصية ، ولحل النزاع مع الاهل ، ولحل المشكلة الجنسية ومشكلة السكنى . وهي بذلك لن تخلق بنفسها اشكالا جديدة للحياة الاجتماعية

فحسب ، اشكالا يتوجب عليها في البداية ان تبتكرها ، ثم ان تتحققها ، واخيرا ان تحامي عنها ، ولكنها ايضا ، وعلى الخصوص ، لن تعود تسمح لاحد بأن يروضها ويطوّعها . ليس ثمة فائدة تجني من التقارير عن الوضع السياسي ، او حتى عن «مشكلة الشباب الجنسية» . فمثل هذه التقارير تظل ضربا من العمل التوجيهي الآتي من أعلى . ان على الشبيبة ان تبدأ من الان بتنظيم حياتها الخاصة . وهي لا تستطيع ولا يجوز لها ان تبدأ بالانشقاق بالشريطة وبالسلطات . وسوف تتبين بسرعة أنها تصطدم بحواجز منيعة ، وأنه يتعدّر عليها حتى ان تبدأ بتنظيم الاشياء الاكثر بساطة وبداهة بالنسبة الى الشباب ؟ وهكذا ستتعلم عمليا ما كنه السياسة الثورية وما جوهر المطلب الثوري . في يوم ستسعى ، على سبيل المثال ، الى ان تحصل على مواد مانعة للحمل ، والى ان تنظم المساعدة المتبادلة في مجال السكن ، الخ ، ويوم ستتدخل السلطات الرأسمالية ، بالتهديد اولا ، ثم بالاعتقالات ، واخيرا بأحكام بالسجن قاسية ، ستتحسن الشبيبة احساسا مباشرا بانها عرضة للاضطهاد ، وستكتشف كيفية هذا الاضطهاد ، وستتعلم وبالتالي ان تناضل لا في الفراغ ، لا على اساس شعارات يتم تلقّيها بواسطة الهاتف ، وإنما من خلال الاصطدام بواقع الحياة القاسية في ظل الرأسمالية . هذا ما تعلّمته جمعيات الكشاف الشيكية في عام ١٩٣١ ، حين اصطدمت برجال الدرك وجرت اعتقالات بين صفوفها لأنها مارست الحياة الجنسية تحت الخيام . وقد قاتلت يومئذ بقضائها في الشارع ضد القوة العامة ذودا عن حقها . ومن غير المباح اليوم في المانيا النوم تحت الخيام بدون شهادة زواج ، والشبيبة الالمانية تتبادل الهمسات ضد هذا الحظر ، لكنها لا تزال تتلزم الهدوء ؟ فهي تفتّش عن أماكن اخرى وتحايل على الحظر . بيد ان وعيها

لحقها في تنظيم حياتها الخاصة سيرغمها على القتال في سبيل
هذا الحق . وكل ما تفتقده هو سند ، تنظيم ، حزب يفهمها ويبذل
لها يد العون ويحامي عنها .

خاتمة

- ليس وعي الجماهير الطبقي معرفة القوانين التاريخية او الاقتصادية التي تسوس حياة البشر ، ولكن معرفة ما يلي :
- ١ - الحاجات الحيوية لكل فرد في الميادين كافية .
 - ٢ - طرق تلبيتها وامكانياتها .
 - ٣ - العقبات التي ينصبها في وجهها مجتمع الاقتصاد الفردي .
 - ٤ - ضروب الكبت والكف والقلق التي تمنع كل فرد من ادراك متطلبات حياته بالذات (ان الصيغة التي تقول : «العدو في معسكرك» تنطبق بوجه خاص على الكبت والكف العقليين اللذين يحيط بهما كل مضطهد نفسه) .
 - ٥ - عدم قابلية قوة هذا الفرد للقهر امام قوة المضطهدين بشرط ان تتحد في شكل حركة جماهيرية .

اما الوعي الطبقي للقيادة الثورية (للحزب الثوري)
 فهو خلاصة المعرفة والاهليات التي تتيح امكانية التعبير عما تعجز
الجماهير عن التعبير عنه . وليست التصفية الثورية في هذه
الحال لنير الرأسمال سوى العمل الاجمالي المتولد عن وعي
الجماهير بعد ادراكه كامل نموه ، حين تكون القيادة الثورية قد
فهمت الجماهير في الميادين كافة .

ملحق :

مبادئ برسم النقاش حول اعادة بناء الحركة العمالية

خلاصة التغييرات المنهجية التي تفرض ضرورتها ملاحظة الاخطاء الماضية

مبدأ : من المستحيل تقديم تعليمات مفصلة . والمطلوب وجود مبادئ للتحليل وللحكم محددة تحديداً جيداً ليجري تطبيقها على الحالات الخاصة . فإذا كان المبدأ صالحًا ، فلن تفترف أخطاء في الحالات الخاصة . وإذا كان المبدأ مفتوحاً ، فسيكون خطر الوقع في الأخطاء كبيرة ولن يكون مرد الأحكام التفصيلية الصائبة إلا إلى المصادفة .

الحكم على الحدث السياسي

- ١ - كي نفهم كل سيرورة ثمة سؤالان يفرضان نفسها :
- ٢ - هل هذه السيرورة ثورية الاتجاه او رجعيته ؟ بـ - هل يعتقد

أولئك الذين ينجزونها بأنهم يعملون باتجاه الاشتراكية او باتجاه الرأسمالية ؟ (ان المظيرين الموضوعي والذاتي مختلفان في غالب الاحيان : فـ «ف.ه» مضادة للثورة موضوعيا ، وثورية ذاتيا) .

٢ - حتى تكون على مستوى المهمة ، من الضروري عند اصدار كل حكم واتخاذ كل موقف ان نطرح على انفسنا الاسئلة التالية :

ماذا يجري بين مختلف فئات الجماهير ؟

ما ايجابياتها وما سلبياتها بالنسبة اليها ؟

كيف تعيش الاحداث السياسية الجماهير الواسعة

غير المسيرة ، او المشوهة من قبل الايديولوجيا ؟

ما شعور الجماهير حيال الحركة الثورية ؟

٣ - ان كل حدث متناقض ، ويشتمل على عوامل جاذبة وعوامل نابذة للثورة ؛ وليس التنبو او التوقع بممكن الا بشرط :

١ - فهم التناقضات .

ب - صياغة مختلف احتمالات تطور الموقف (العوامل

الرجعية والثورية ، على سبيل المثال ، في

الفاشية) .

٤ - تشتمل السيرة الاجتماعية في آن واحد على قوى تقدمية او رجعية ، ويكون كنه العمل الثوري في فهم هذين النوعين من القوى وفي تشجيع الميل الثورية (الشبيبة الهتلرية على سبيل المثال : الحرية الجنسية قوة ثورية ، والایمان بالسلطة قوة رجعية) .

٥ - ليست الحاجات في خدمة الاقتصاد ، وإنما الاقتصاد في خدمة الحاجات .

٦ - من الضروري ان نتصور رجال الشرطة وغيرهم من الخصوم وهم في ملابسهم الداخلية . وكذلك الحال بالنسبة الى كل سلطة يهاب جانبها .

حول منهج العمل

- ٧ - ان الابياء كوسيلة لاجتناب الجماهير لا يليق الا بالرجعيـة السياسية ؛ فليس للحركة الثورية ان توحـي ، وانما عليها ان تقول كل شيء للجماـهـير ، وأن تحـذر وتصوـغ رغـبات الجـماـهـير المـبـهـمةـةـ غير المـفـصـحـ عنـها (ان نـظـرـيـةـ الصـعـودـ الشـوـرـيـ ضـربـ منـ الـاـبـيـاءـ) .
- ٨ - ان الدـبلـومـاسـيةـ السـرـيـةـ هيـ شـكـلـ سـيـاسـةـ الرـجـعـيـةـ . اـمـاـ السـيـاسـةـ الثـوـرـيـةـ فـقوـامـهاـ التـوـجـهـ الدـائـمـ الىـ الجـماـهـيرـ ، وـبـذـ السـيـاسـةـ السـرـيـةـ (مـثـالـ عـلـىـ العـكـسـ : خـطـابـ ليـتـفـينـوـفـ فيـ الدـورـةـ العـامـةـ الـاـخـيـرـ لـؤـمـرـ نـزـعـ السـلاـحـ) .
- ٩ - اذاـ اـسـقطـنـاـ عـلـىـ الجـماـهـيرـ رـغـبـاتـنـاـ الخـاصـةـ وـاـذـ لمـ نـحـكمـ عـلـىـ المـوـقـعـ الفـعـلـيـ حـكـمـاـ مـسـتـقـلـاـ عـنـ رـغـبـاتـنـاـ الخـاصـةـ ، نـكـونـ قـدـ اـسـقطـنـاـ مـنـ حـسـابـنـاـ رـغـبـاتـنـاـ التيـ تـمـكـنـ تـلـيـتـهاـ بـسـهـولةـ تـفـوقـ سـهـولةـ تـلـيـةـ ايـ رـغـبـاتـ اـخـرـىـ (اـسـقـاطـ الـوـضـعـ عـلـىـ الجـماـهـيرـ كـمـاـ تـرـاهـ جـمـاعـةـ فـتـوـيـةـ صـفـيـرـةـ) .
- ١٠ - تـقـودـ النـزـعـةـ الـاـقـتـصـادـيـةـ إـلـىـ الفـشـلـ وـالـاخـفـقـ : فالـاـنـسانـ هوـ الـذـيـ يـصـنـعـ التـارـيـخـ ، لـاـ الـآـلـةـ . الـاـنـسانـ يـسـتـخـدـمـ الـآـلـةـ . وـالـاـقـتـصـادـ لـاـ يـتـحـولـ مـبـاشـرـةـ إـلـىـ وـعـيـ ، لـكـنـ هـنـاكـ عـدـيدـ مـنـ الـحـلـقـاتـ الـمـتوـسـطـةـ ، كـمـاـ انـ هـنـاكـ تـناـقـضـاتـ (عـلـىـ سـبـيلـ المـثالـ : العـاملـ الـمـسـيـحـيـ ، الـرـأـةـ الـفـقـرـيـ الـمـناـصـرـةـ لـلـنـازـيـينـ ، الخـ) .
- ١١ - مـنـ الـبـدـهـيـ انـ تـمـرـدـ الجـماـهـيرـ عـلـىـ الـبـوـسـ الـمـادـيـ وـالـجـنـسـيـ . وـعـلـيـنـاـ انـ تـذـكـرـ عـلـىـ الدـوـامـ انـ الـمـشـكـلـةـ الـحـقـيقـيـةـ هـيـ اـنـهـ لـيـسـ مـنـ الـمـسـتـبـعـدـ اـنـ تـتـصـرـفـ الجـماـهـيرـ فـيـ عـكـسـ مـصـلـحـتـهـاـ ((الـسـلـوكـ الـلـاـعـقـلـانـيـ)) ؟ عـلـىـ سـبـيلـ المـثالـ : اـنـ تـدـافـعـ النـسـاءـ عـنـ الزـواـجـ حـتـىـ حـيـنـ يـكـونـ عـلـيـهـنـ عـبـئـ ، اـنـ يـنـسـيـ الـعـمـالـ الـاـسـتـفـالـلـ حـيـنـ يـكـونـ الـمـصـنـعـ فـيـ اـزـدـهـارـ ، اـنـ يـنـاصـرـ الشـبـانـ الـقـمـعـ الـجـنـسـيـ .
- ١٢ - يـنـبـغـيـ اـلـاـ نـحـمـلـ الـوـعـيـ الـطـبـقـيـ إـلـىـ الجـماـهـيرـ فـيـ شـكـلـ

دروس يلقاها الاستاذ من أعلى المنبر ، وانما ينبغي ان ننمي ونطوره
بداء من حياة الجماهير . لنسيس الحاجات جميعا .

١٣ - ان نشرح بوضوح قام ان البروليتاريا حين تدافع عن مصالحها الخاصة تمثل في الوقت نفسه مصالح الشفيلة قاطبة . لا تعارض بين البروليتاريا والطبقات المتوسطة . والبروليتاريا الصناعية في ظل الرأسمالية المتقدمة اقلية عدديا ، ناهيك عن انها متبرجة .

١٤ - لا منشورات بالمرة (او غير ذلك من اشكال التحرير) خير من منشورات رديئة . حدار من اصابة الجماهير بخيبة الامل ! ليست النبات هي الشيء الحاسم ، وانما التأثير على الجماهير ! لتوطد جسر الثقة قبل اي محاولة للتأثير على الجماهير ، وعلى سبيل المثال : ان نسلم بأننا نجهل بهذا الشيء او بذلك . الا نسأل الجماهير نشاطا اكثر مما تستطيع ان تبذل . ليكن عملنا تدرجيا ! ول يكن ايضا راسخ الاسس ، طويل النفس ، ولكن لكن على اهة الاستعداد لاحادث طارئة !

١٥ - ان الجماهير الواسعة اللامسيسة هي التي تحدد دوما مصير الثورة . لنسيس أذن الحياة الخاصة ، الحياة العادية في الاماكن العامة والمرافق دور السينما والأسواق والمخابع والفنادق ومكاتب المراهنات ! ان الطاقة الثورية لم تراكمه في الحياة اليومية !

١٧ - ليأت تفكيرنا من وجهة نظر أممية ، لا من وجهة نظر قومية (نحن لا نهتم في المانيا بالجبهة الواحدة في فرنسا وفي مقاطعة السار ، او بالثورة الصينية) .

نحن - الحزب

١٨ - ثمة شكلان من الوعي الطبقي : فوعي الجماهير الطبقي

يختلف عن وعي القيادة (من جانب ، حاجات الشبان ، وعلى سبيل المثال الحاجة الى مسكن مستقل ، ومقاومة الشفيلة لتدني الاجور ، وتمرد اعضاء « ف . ه » على تجريدتهم من السلاح ؛ ومن جانب الآخر معرفة اولية الازمات والتكنية والتخطيط الاشتراكي ، ومعرفة التناحرات الامبرالية والسباق العالمي على السلاح ، وكذلك التقييم الصحيح والبالغ الدقة لحاجات الجماهير) .

١٩ - ليس المشروع او البرنامج هو الذي يحدد القوة السياسية لمنظمة من المنظمات او احركة من الحركات ، وإنما الذي يحدد قوتها هذه قاعدتها الجماهيرية ، اي ما يتجاوز فيها مع رغبات الجماهير . لا تستطيع القيادة الثورية اذن ان تسمع لنفسها بالذبذبة والمراؤحة على نحو ما فعل غوبيلز ، على سبيل المثال ، اذ استطاع الافلات من مجررة ٣٠ حزيران بوقفه في الجانب « الصحيح » ، هو الذي لم تكن تقييد حركته قاعدة جماهيرية .

٢٠ - سؤال اساسي : الست مصابا ، انا الثوري ، بعدي الروح البورجوازية ، الدينية ، التهذيبية ؟ الا تربكني هذه العدوى في عملي الثوري ؟ الست اؤمن انا الآخر بالسلطة ؟

٢١ - لا يجوز للقيادة الثورية ان تعتقد ذاتيا فحسب بأنها تعمل للثورة ، بل ينبغي ايضا ان تعمل لها موضوعيا !

٢٢ - ينبغي بذلك كل ما في الامكان حتى لا تصبح الاخطاء المنظورة في المستويات الدنيا فحسب ، بل في القمة ايضا .

٢٣ - يجب ان يخضع الخط السياسي باستمرار لرقابة القاعدة (النقاش الداخلي) .

٢٤ - لا يمكن الاكتفاء بتغيير السياسة بدون الاعلان على ذلك ، او حتى خفية عن الانظار ، مما يؤدي في هذه الحال الى زرع اللبس والفوبي . بل يقضى الواجب بتقديم شرح مفصل ودقيق لاعضاء الحزب عن كل تغيير في السياسة ، وباختصار

الاخطاء المرتكبة لنقد ذاتي حقيقي ، بدلا من القاء تبعتها بصورة ميكانيكية على عاتق المستويات الدنيا ((ان مقررات المؤتمر كانت للحزب لم تطبق على الوجه الصحيح)).

٢٥ - ينفي هنا ان تطرح مشكلة القيادة ، مشكلة تجديد الكوادر المتوسطة والدنيا . ومن لا يتوقع الاحداث ولا يستبقها ، ومن يهت خلفها ، هو قيادي ردئ لن يحرك ساكنا سوى انه سيمثل لضغط الجماهير .

٢٦ - البحث من الان عن كيفية التحااشي المسبق لاصابة منظمة ثورية حية بمرض البيروقراطية . لماذا يتحول العامل بسرعة الى متنفذ كلي الوقار حين يرقى الى الكادر ؟ ان خير معيار هو تبني الاخلاق الجنسية في موضوع الزواج وحياة الشبيبة !

٢٧ - كيف و بم تعرف الخائن او العميل او المخاتل الذي ما يزال امره رهن المستقبل ، والذي سيقلب ظهر المجن ويغير رأيه في اللحظة الحاسمة ، كيف و بم تعرفه حتى قبل ان يعرف نفسه او يشعر بما يختبئ تحت جلدء ؟ (حب الرسميات والدبلوماسية، المرونة في الدفاع عن وجهة نظره الخاصة ، الشطط في الرفقة والالفة ، الاعلان الصاخب عن عواطفه الثورية ، الخ) .

٢٨ - كيف السبيل الى التتحقق من صفات الثوري الاصيل ؟ (بساطة الملبس ، القدرة على الاختكاك المباشر ، موقف طبيعي في المجال الجنسي ، لا ثرثرة ، لا الانتماء العاطفي الى الاشتراكية فحسب ، بل ايضا وفي المقام الاول الانتماء الفكري ، عدم سلوك مسلك المتنفذ في الوظائف العليا ، لا موقف ابوي تجاه المرأة والابناء) .

٢٩ - بنية حزب الفد : كيف النخبة لا كمها ! النخبة (الحزب) + جمهورة الانصار = سهولة التنسيب ، اعادة العمل بفتره التجريب والاختبار قبل قبول العضو في الحزب .
٣٠ - من الضروري عدم تحمل المسؤولين ما فوق طاقتهم !

ومن الضروري توفير أوقات فراغ لهم بلا تقييد ! لا التخلّي عن الحياة الخاصة ، بل تنظيمها حسن التنظيم ! لنعم على الدوام على تكوين بدلاء وعلى تأمين الاحتياطي الكافي منهم . تجزئة العمل وتوزيعه . اجتماعات قصيرة ولصيقة بالواقع . تشجيع النقد الفعلي ، وتجنب المحاكمات بكل حزم . العمل على الدوام على فهم وجهة نظر الآخر اولا ! تجنب الاعمال التي لا غد لها ، وتحاشي «الحملات» ، والعمل في أبعد عمق ممكن ، بحيث ينفلت العمل من عقاله من تلقاء نفسه .

٣١ - لا بطولة غير مجده ! لا ان نتباهى بالشهادة ، بل ان نوفر قوانا فلا بددتها هباء ! الذهاب الى السجن ليس امرا صعبا ولا مجيدا ، والفن الاعظم هو عدم الذهاب الى السجن ! لا الاعلان عن «التضامن البروليتاري»، بل انتهاج تضامن فعلى (راجع اخطاء «المعونة الحمراء») .

٣٢ - غالبا ما تربك النزاعات وال العلاقات ذات الطابع الشخصي العمل ! لنتعلم كيف نسيّس المسائل الشخصية ، لا ان نحيّها جانبا (على سبيل المثال : المرأة التي تحتجز زوجها غيرة ، او العكس) .

٣٣ - ينبغي ان نتعلم كيف نغير رأينا ، ولكن هذا لا يعني ان تكون بلا قناعات . من الضروري التحقق من ان التعلق بالتنظيم لا يحول دون رؤية الواقع وجها لوجه (ان التنظيم الشوري والتضامن الواعي ضمن اطاره هما اساس العمل الثوري بالنسبة الى الفرد ، ولكن حين يتحول التنظيم لشعوريا الى بديل للبيت والاسرة ، فقد يشوش رؤية الواقع) .

٣٤ - الحرث على الدوام على احاطة المشكلات الداخلية بالعلنية التامة (هذا لا ينطبق بالطبع الا على الحزب الشرعي) . السياسة السرية داخل الحزب ضارة . من يخف رأيه ، فليس

منا . كذلك حال من يضع قضية الثورة في خدمة التكتيك ، وليس العكس .

٣٥ - تطوير مبادهتنا الذاتية لا يعني شيئاً سوى رؤية الحياة بدون كمامات عيون ، واستخلاص النتائج المترتبة على ذلك .

فُرْسَتٌ

٥	تقديم
٧	مدخل
٩	١ - نوعاً الوعي الطبيعي
٩	ـ دوافع هذا النص
١٥	ـ نوعاً «الوعي الطبيعي»
٣١	٢ - بعض عوامل الوعي الطبيعي العينية وبعض عوامل الكف لدى الفرد المتوسط
٣٢	ـ لدى الشبان (في زمن البلوغ وبعد البلوغ)
٤٠	ـ لدى النساء
٤٩	ـ لدى الرجال الراشدين
٥٥	ـ لدى الطفل
٦٣	٣ - السياسة البورجوازية والسياسة البروليتارية
٦٤	ـ صنمية «السياسة»
٦٩	ـ لماذا لم يتوجه ليتفنوف الى الجماهير ؟
٧٤	ـ مخطط السياسة الثورية

٧٥	- السياسة البورجوازية للحزب الشيوعي الالماني
٧٧	- السياسة الثورية داخل الحزب
٧٩	» - تطوير الوعي الطبقي انطلاقا من حياة الجماهير
٨١	- القيادة والحزب والجماهير
٨٣	- موقف «السياسة الجنسية» ازاء «الحزب الجديد»
	- الفنان والرقص الشعبيان بصفتهما من عناصر
٩٠	الشغور الثوري
٩٢	- العمل العلمي الثوري
٩٤	- الخوف من الثورة
٩٦	- الشرطي كإنسان وكمامور دولة
١٠٠	- تطوير السياسة الثورية انطلاقا من حاجات السكان
١٠٣	- لنستملّك ملکنا
١١٠	خاتمة
١١٧	ملحق: مبادئ برسوم النقاش حول إعادة بناء الحركة العمالية

هَذَا الْكِتَابُ

ينطلق رايش من مبدأ تيز الوعي الظبقي للقيادة
عن الحس الظبقي للجماهير لكي يرسى بعض اسس
الاسماه بعلم نفس الجماهير : علم نفس تكون
الجماهير ذاته لا موضوعه ، ويحول دون السقوط
في الشيوخة السياسية ، عرقوب آخيل كل حركة
ثورية .

ويُعزو رأيش أحد الأسباب الأساسية لفشل
الحركة الاشتراكية في أوروبا إلى عدم وجود علم
نفس سياسي ماركسي قابل للاستخدام ، ويرى أن
هذه الثغرة كانت بمثابة ميزة كبيرة للعدو الطبيعي ،
كما كانت أقوى سلاح بيد الفاشية .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت
الثمن : ٥٥٠ ق. ل.
أو ما يعادلها